

مصطفى محمود



اليس

مصطفى محمود

والله

مقدمة

الإنسان تتأكله شهوة غامضة خطيرة . أخطر من شهوة الجنس .. وأخطر من شهوة الطعام .. هي شهوة العقيدة .. شهوة اليقين .. الشهوة إلى شيء يؤمن به ويصدق به .. وهو في سبيل هذه الشهوة قد يؤمن بجحر أو صنم أو تعويذة أو حجاب أو درويش أبل .. ليس لأنه ساذج ومغفل وإنما لأنه ضعيف .. به ضعف فطري .. وشوق غريزي حاد إلى هدف يرتبط به .. وكلية يصدقها وعقيدة يعتقدها .

إن كل شيء يسقط من حواليه ويذبل ويفنى . الناس والمبادئ .. والحقائق والمثل .. حتى نظريات العلم يفتتها الشك وتهدمها البحوث وتنسخها بنظريات أخرى تعلو عليها . إنه في معبد تتساقط أعمدته .. وتتساقط أصنامه ..

لوحة الغلاف وجميع رسوم الكتاب بريشة الفنان رجائي

وتساقط كلماته وهو نفسه يتساقط في النهاية من المرض والإعياء والشيخوخة ويفنى .. ولهذا يعيش في رعب .. الأرض تهتز من تحته وهو يتلمس حقيقة يمسك بها .. شيئاً ثابتاً يلوذ به وينجو من الهلاك .

إن مشكلته ليست الإمساك برمقه ، وإنما الإمساك بعقله الذي يذهب شعاعاً كلما تلفت حواليه .

إنه يدرك من الوهلة الأولى منذ مجيئه إلى الدنيا أنه كالمُدعو إلى وليمة باذخة .. ولكن الأكل كله مسموم .. وكل المدعوين الذين يأكلونه يموتون .. بلا استثناء .

ما السر في الوليمة إذن .. ولماذا يأكل .

إن شهوة الأكل تدفعه إلى الأكل .. وهو لا بد أن يأكل ليمسك برمقه .. ولكنه يريد أن يمسك بعقله أيضاً .. يريد أن يعرف .. من أين .. وإلى أين ولماذا .. وما هذا .. يريد يقيناً .. ولا يجد يقيناً .. ويتوسل إلى سبيل .

نجد أستاذاً في الجامعة يؤمن بشيخ يحضر الأرواح .. وطبيباً يؤمن بالفنجان .. وامرأة مثقفة تؤمن بفاتحة بخت .

والسبب أن الثقافة نفسها لا تنجد وشهوة اليقين أكبر من الثقافة .. وأكثر إلحاحاً من أن تنتظر لتجد أجوبة أكيدة .

وفي الصعيد قابلت رجلاً عجيباً .. أفندياً تخرج من التجارة .. صرافاً لفت نظري لبسه الملهل .. ونظراته الساهرة الشاردة .

ناقشني في الأديان .. وفي الله ووجوده .. وفي يوم القيامة .. وقال لي : إن يوم القيامة سوف يكون في سنة ١٩٦٠ العرافة قالت له هذا ونصحته بأن يخزن في بيته تموين مائة سنة لأن القيامة سوف تقضى بالفناء على البشرية كلها ما عدا هو . وأنه سيكون مثل نوح الذي ينجو من الطوفان .. وأن بيته سوف يكون كسفينة نوح

التي تهب الحياة لكل من يلوذ بها . . وعليه أن يملأ بيته من الآن بكل أصناف الحياة . . وبكل أصناف التموين والمأكولات .

وذهبت إلى بيته لأجد حجرات بأكملها مليئة إلى السقف بأطنان من الأرز والعدس والفلول والسكر والبن والشاي والصابون والكمون والكزبرة والكبريت . . وأشياء غريبة مثل اللبان والزئبق والصمغ . وأزواجا من الأرانب والفئران والكلاب والدجاج والبط والأرز .

لقد باع الرجل الفدادين الثلاثة التي يملكها واشترى مئونة سفينة نوح لمائة سنة :

وحكى لي أنه لم يدخل الحمام منذ شهر . . عملاً بنصيحة العرافة بالألا يترب الماء أربعين يوماً بالتمام حتى يتجلى له السر الأعظم ويعرف سعاد القيامة باليوم والساعة .

وكان يبدو سعيداً وهو يروى لي إنتظاره لهذا اليوم

الموعود . . وكانت عيناه تبرقان وهو ينطق بكلمة السر الأعظم .

وشعرت برغبة في الضحك . . ولكني ما لبثت أن ابتلعت الضحك وأحسست بالإشفاق لا على الرجل وحده وإنما الإنسانية كلها .

أربعون مليوناً من الشعب الألماني كانوا في أحد الأيام مثل هذا الرجل . . يمشون خلف هتلر . . ويعتقدون في خرافة العنصر الآري . . تماماً كما يمشى هذا الرجل خلف العرافة ويعتقد في هذيانها . . وقد دفع الرجل ثلاثة فدادين من ماله . . ودفع الشعب الألماني خمسة ملايين روح من أرواحه ثمناً لهذه الشهوة . . شهوة الإيمان . . شهوة الراحة إلى يقين بأي طريق .

وفي الأضرحة التي نصادفها كلها ذهبنا في أزقة القاهرة . . وفي قرى الأرياف . . أمثلة أخرى لهذه الشهوة موضوعة

في علب وأمامها الناس البسطاء بعيونهم الدامعة ..
يوقدون الشموع .

وفي كل مكان يبحث الإنسان التعس الذي تذروه
رياح الشكوك عن يقين يبحث عن زعامة يؤمن بها إيماناً
مطلقاً أو فكرة يدين بها ديانة عمياء .. أو صنما يركع
أمامه ويستشير .. إنه يطلب الراحة النفسية بأى
ثم .. إلا الفيلسوف إنه وحده الذى وحده الذى
يرفض المقدسات والمسلمات ويصر على مواجهة المأساة
برمتها .. ويصر على البقاء فى المعبد .. بينما أعمدته
وأصنامهم وكلباته تنهار وتتحطم على رأسه .. ويرفض
أن يلوذ بخرافة أو كذبة .. ليستريح .

إن شهوة الحقيقة عنده أقوى من شهوة الإيمان ..
والم الشك عنده أرحم من ألم التزييف والتضليل .

إنه لا يستطيع أن يضلل نفسه ولا يملك إلا أن

يقف بين المتناقضات يتمزق .. باحثاً عن حل مخلص
من خلال محنته .

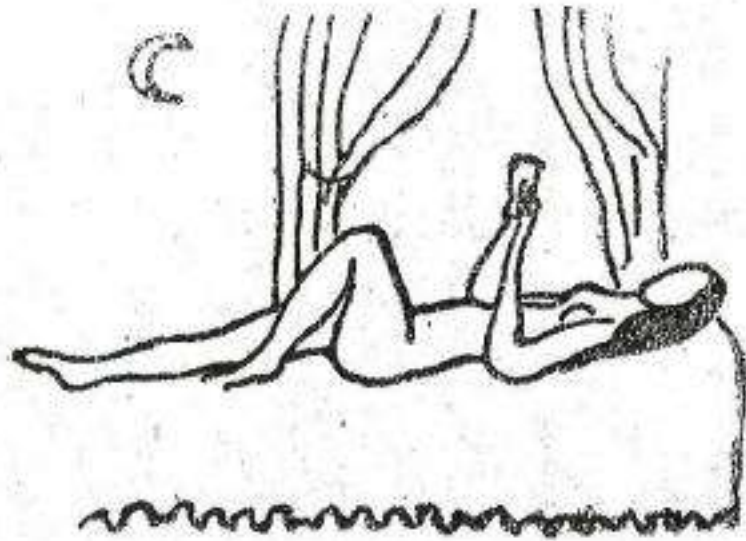
إن المؤمنين يقولون عنه أنه ملحد .. ولكنه
ليس ملحداً .. وإنما هو مؤمن على مستوى أرفع من
إيمانهم .. شهوة أرقى من شهوتهم .. وهلافة أبعد
من أهدافهم .. والتمن الذى يدفعه أبهظ من كل الأثمان
التي يدفعونها .. إنه يسكن فى أرض الزلازل ليعرف
حقيقتها .. ويقضى عمره يرتجف .. والأرض من تحته
تنشق مرة بعد أخرى .. وكلما خيل إليه أنه وصل إلى
حقيقة ثابتة انشقت الأرض عن هوة تحتها .. لا يصده
عن غايته خوف ولا طمع .

الموت أو الجنون هو الذى يمكن أن يعفيه .. إن الفيلسوف
هو الفدائى الذى يظهر المستقبل من الألغام الفكرية التى
وضعها المفكرون القدامى فيه .. هو الذى يرفع التقاليد من
مكانها .. وهو الذى يحطم ألواح الوصايا ليضع وصايا

جديدة وكل لغم من الألغام ينفجر في عقله وينفجر معه
غضب الناس وسخطهم واضطهادهم .. ولكنه يمضى في
طريقه لا يهتم .. وربما قاده الطريق إلى الصليب
أو المشنقة .. أو المحرقة .. أو السجن ولكنه لا يبالي ..
لأنه أدرك الحقيقة الكبرى .. إن الفناء في جوهره ..
وأنه ميت لا محالة .. بل هو ميت من الآن يدب على
ساقين .. فليقل كلمته وليتخطم ليقلاها في وجه الناس ..
ولا داعى للخوف فكل شيء في الدنيا موضع شك ..
وأنا حينما كتبت هذا الكتاب كانت عندي شهوة حقيقة
وكنت أحس أن كثيراً من الأشياء حولي موضع شك ..
وكثيراً من الأسئلة بلا جواب ..
وكتابي سر استطلاعات القليلة التي مشيتها باحثاً عن
جواب .. باحثاً عن حل ..

مصطفى محمود

حقيقة الحب



والبحر ليس ببحراً ، ولكنه أملاح صوديوم .
وبوتاسيوم ومغنسيوم وكالسيوم .

ورغيف الخبز ليس رغيفاً طرياً شياً ، ولكنه
مواد كربوايدراتية . وبروتينية . ودهنية . وفيتامينات .
وعصير المانجو اللذيذ ، عبارة عن جلوكوز .
وفركتور . وسكروز .

حتى القبلية الممتعة ، ليست سوى تدفق هرمونات
في الشرايين . . وافرازات حمضية عند أطراف الأعصاب .
ولحفة اللقاء ليست سوى هبوط في الأحشاء وانخفاض
في ضغط الدم .

ولوعة العشق ارتفاع في نسبة التستوستيرون
والإسترين . . .

وذكريات الحب الجميلة وخيالاته مجرد مواد
ومركبات .

اللزّة ..

منذ أيام بدأت أطالع في كتب علمية كبيرة ومراجع
من ألف صفحة . وعادت إلى نفسي القديمة ، إلى
الطبيب القديم ، الذي يضع كل شيء في مخبر ويقيسه
ويزنه ويحرقه في بوتقة ثم يذيقه في ماء مقطر ويضع
فيه ورقة عباد شمس ..

وأحسست أني كلما توغلت في القراءة العلمية . .
تغير طعم الحياة في فمي .

إن السيم ليس نسيماً يستحم في الضوء ويشعشع وروحي
ولكنه تروجين وأكسوجين وثنائي أكسيد كربون
ونشادر . . وهليوم ، وأراجون . . وغبار . . وذرات
ماء معدنية . . وأشعة كونية .

وقصائد شكسبير الخالدة ، كانت قبل أن يكتبها
أحماساً وقلويات في ذهنه .

شيء لا يطاق .

وألقيت بالكتب الكبيرة ، والمراجع الضخمة
من ألف صفحة .

إن إحساسي وأنا أقبل حبيبتي أني أعطيها شربة
هرمونات .. إحساس يغيظ .

ومنظر مصراني الغليظ وهو يهبط أثناء نظرة حب
ملهوفة .. يقتل الحب .. ويقتلني من الاشمئزاز .

وتصور لحظات الفراش الممتعة على شكل سحابة
ومحالييل عيارية . شيء لا يحتمل .

إننا نشعر بالسعادة لأننا لا نتفرج على أنفسنا ونحن
سعداء ولا نحلل طبائعنا أثناء لحظة السرور .. وإنما
نعيش هذه اللحظة ونندمج فيها .. ونكون نحن



واللحظة شيئاً واحداً ، أما رجل العلم فيستأجر لوج
يتفرج فيه على نفسه ويحللها ويقطعها نصفين .. ثم يقطع
النصف نصفين ثم يعصر عليه لمونة .. ويراقب التفاعل ،
ويسجل النتائج في ورقة .

إنه يضحى بمتعة الشعور في سبيل متعة المعرفة .. وهو
لهذا رجل مستريح على الدوام ، بعيد عن زواجر القلق ،
لأن استمتاع المعرفة مثل استمتاع الشطرنج ، هادئ ،
مسترخ على مقعد . أما لذة العاطفة ، فهي فوران وغليان
وحركة في داخل الوجود كله .

إن الطبيب حينما يكشف على امرأة عارية لا ينظر
إليها بقلبه ، ولكنه ينظر إليها بعقله .. إنه يقطع صلة الشعور
التي تربطه بمريضته ، ويكتفى بالتفرج .. وهو لهذا لا يبكي
إذا اكتشف أن مريضته عندها سرطان .. ولا يرقص من
الفرح إذا اكتشف أن عندها زكماً .. إنه حانوتى يضع
الميت في كيس دبلان كأنه يضع بضاعة عادية أو إردب قمح

والطبيب لا يندمج في حالاته ، وإنما يقف على الباب
يسجل ملاحظاته .. الحرارة ، والنبض ، والتنفس ، والدم ،
والبول .. مجرد ملاحظات فكة يضعها في رسم بياني ،
ويستخرج منها تشخيصاً وعلاجاً . يصنع كل هذا ببساطة
للمريض . وبدون انفعال ، وبدون عاطفة . لأن العاطفة
والانفعال والحزن والفرح من شأن المريض وليست من
شأنه .. إن المريض في حالة حياة .. وهو في حالة فرجة
على الحياة .

تذكرت هذه التجربة وأنا جالس مسترخي في غرفة
صديقي . وعيني في عينه ، ومخى في الهواء .. معلق .
يفكر ، وقلبي معلق معه ، والاثنان معلقان من حبال
أعصابي يرقصان رقصة خيالية مجنونة

وكان صديقي يتكلم في السياسة ، وأنا أجيب عليه
من وقت لآخر بكلمة : نعم ، آه ، أيوه ، معلوم ،
مضبوط ، في محله !

وأخيرا سمعت صديقي يضحك ويقول وهو يهزني :
— هو إيه يا جدع انت اللي في محله ده ؟ أقولك
نعلن الحرب على إنجلترا .. تقول في محله ؟ دنت باين
عليك مش في محلك خالص .

وأخذ يقهقه .. ثم قال :

إسمع بقه .. انت الطريقة بتاعتك في الحب دى مش
عاجباني .

— طريقة إيه ؟

— طريقة انك تنزل بدماعك وأعصابك وقلبك ودمك
ولحمك في كل غرام كده .. ما ينفعش .

— مش فاهم ؟

— بالضبط .. انت مش فاهم .. إنت مش فاهم
ازاى تحب لغاية دلوقت ؟
— علمنى ازاى أحب طيب ؟

— حب بحاجة وخلي حاجه .. حب بلسانك .. حب
بعقلك .. حب بعنيك .. خلي قلبك لنفسك ولنا ..
ما تندمجش كده .. اتفرج .. بوس كأنك بتتفرج ..
روح للبيعاد أكنك رايج لمعرض .
— يعنى ابقى ناقد مش عاشق .

— مفيش طريقة غير كده والا البنات يشربوك
ويحلو بيك .

وهنا تذكرت التجربة التي مرت بى وأنا غارق في
الكتب الكبيرة من ألف صفحة .

إن صديقي يعتقد أن الصيانة الوحيدة للعاشق هي أن
يتحول إلى طبيب يسجل ملاحظات عن تجارب القلب
والأحضان ولا يندمج فيها . وصديقي على صواب . فوظيفة
الملاحظ أكثر راحة من وظيفة الرجل الذي يعيش في
دوره ، إنه لا يخسر ولا يكسب لأنه خارج الحلقة ، إنه
بمجرد حكم ، ولكن ثمن هذا النوع من الراحة فادح ؛

فالملاحظ لا يعاني اللذة ولا الألم ، إنه يتمتع بنوع بارد من المتعة ، هو المعرفة ؛ ويخسر في مقابلة لذات الانفعال .

إن صديقي يريد أن يجنبني الألم بأن يجنبني اللذة أيضاً ، ويحولني إلى مجرد محرر وصحفي حتى في علاقاتي العاطفية .

ونظرت إلى صديقي طويلاً . .

ولأول مرة تأكدت أنه دكتور يحمل ميداليات التشريح والفسولوجيا على صدره . . بينما أنا غلبان . . دكتور بالوراثة فقط . .

وحينما كنا نسير في الطريق أنا وصديقي . . كنت مازلت أفكر في هذين الأسلوبين من الحياة : أسلوب الذي يعيش ، وأسلوب الذي يتفرج . . والمكسب والخسارة الذي يتكلفه كل أسلوب ، والاختيار الذي اختاره إذا كان لابد من اختيار .

وكان صديقي ما يزال يتكلم في السياسة ، وكنت

ما أزال أجاب عليه : بنعم . . وآه . . وأيوه ومضبوط . . وفي محله . . وأنا ولا هنا . . ولا في محلي بالمرة . .

وكان من الواضح أني اخترت طريق من زمن طويل . . وقبلت التكليف . .

وحينما بلغت منزلي . . وتمددت في فراشي كنت ما أزال أفكر في لذة الحب . .

لقد اكتشفت أن الطريق إلى اللذة في الحب هو الإندماج . . معايشة التجربة بخسائرها ومكاسبها . . والنفض معها في كل نبضة . . والتأوه معها في كل آهة . .

ولكن بقي سؤال ظل يشغل بالي . .

ما هي حقيقة الحب ؟

إن الشعور بالحب والتلذذ به شيء . . وحقيقته شيء . .

آخر .. وأنا أريد أن أعرف الحقيقة .. ولا يكفيني أن
أشعر بها ..

أريد أن أصل إلى معرفة واضحة لحقيقة الحب ..
ما معنى كلمة حب بالضبط .. ومتى يكون الحب حقيقياً
وهل هناك حب حقيقى ؟ ..

وكانت هذه الأسئلة كبيرة على رأسى التى بدأت تدور
دوار النوم .. فأطفت المصباح ..

الباب

كانت الساعة تدق الواحدة .. والليل عميق ..
مفروش أمامى كلوحة غير محدودة .. أرسم فوقها ثم
أحسو .. ثم أرسم .. وأعبت ..
وكان فى يدى ذلك القفل السحري .. أحاول أن أعثر

على الأرقام التى تفتحه ..
أنه قفل معلق على بوابة كل قلب يفتحه مفتاح
واحد اسمه الحب ..

وكنيت أبحث هذه الليلة عن حقيقة الحب . تلك
الحقيقة البسيطة التى تلتقطها حواسنا .. قبل أن
تدركها عقولنا ..

كنت أحاول فى هذه المرة أن أدرك الحب قبل
أن يدركنى .

أن الحب فى مجتمعنا عاطفة معقدة .. لأن مجتمعنا

نفسه معقد .. كل شيء في مجتمعاتنا العصرية صناعى حتى الكلام أسلوب صناعى للتعبير نصفه يضيع في التكلف والمجاملات .. ونصفه الآخر يضيع في الخوف والنخيل .. وإذا تبقى شيء فهو يخرج من الفم وقد تحول إلى كذبة .. وحياتنا صناعية .. الطعام والشراب والمواصلات والمراسلات .. كل جزء من حياتنا تصنعه شركة أو يقوم على تركيبه مصنع .. والانسان في داخل هذه الآلة الجهنمية فاقد لوعيه .. فاقد لنفسه .. فاقد لفطرته البيضاء النظيفة ..

لقد شوهته المداخن بالهباب ومسخة صراع الطبقات وأحرقة النهش والتكالب الفردى على الأرباح والمغانم .. والنتيجة أن علاقاتنا ليست طبيعية .. حبنا ليس طبيعيا .. وكراهيتنا ليست طبيعية ..

هناك مسخ لكن عوطفنا .. مسخ يحدث في داخلنا دون أن ندري ..

إن ما نسميه حبا هو في أغلبه شطارة .. في أغلبه تكتيك .. وتخطيط .. وتدبير وفهولة ومعرفة حامية بين أدمغة عكرة أنانية لا بين قلوب صافية ..

الحب عملية تركيبية مفتعلة نولفها بمؤثرات خارجية بخلاط الميول ومزجها وإهاجتها .. وليست عملية طبيعية تنشأ من داخلنا ..

حتى لذة الجنس أصبحت بتأثير الشطاره مثل لذة العجالات الذى يركب البسكليتة ليقوم بحركات بهلوانية ..

لقد خلت هي الأخرى من الإنسجام الفطرى البسيط ..

لا يمكن أن نسمى هذا الذى نمارسه في الشوارع والحدائق ونوافذ البيوت والصالونات والتليفونات حبا ..

أنه مباريات شطرنج .. واستعراض مواهب وعضلات ..

أنه نوع غريب من التمتع .. يتمتع فيه كل فرد
بنفسه .. بقوة .. وسطوته .. وقدراته
وهو تمتع حقير أناني ينتحل صفة الحب .. ويكذب ..
ويكذب بصفاقه وتبجح ..
والحب أحياناً يعبر عن عقد نفسية فينا لعلقة لها بمن ..
نحبهم بالمرّة ..
قد يعبر عن مركب النقص .. أو مركب العظمة ..
أو الخضوع .. أو السادية .. أو حالات من الشبق
الجنسى المريض .. أو الهستيريا .. أو الهروب
قد يختار الواحد منا امرأة قبيحة كسيحة لتكون
موضوع حبة : لأنه يشعر أنه ناقص
وقد يستخدم الواحد منا غرامياته معرضاً يعرض فيه
قدراته وتفوقه لأنه مصاب بهوس العظمة ..
وقد يلجأ المحب إلى تعذيب حبيته إذا كان سادياً ..



أو قد يخضع لها ويجد لذة في تقبيل حداثها إذا كان
ماسوشيا .. وقد يكون حبه هستيريا .. يتوقف فيها
القلب .. ويشل الوجدان .. تماما مثل الهستيريا العضوية
التي تصيب الأطراف بالشلل الوهمي .. فيقول الواحد منا :
— أنا أحب هذه المرأة .. أنا أعبدها .. أنا تعيس ..
أنا عاجز عن التفكير في أى شيء سواها ..

والواقع أنه لا يحبها .. وأن أعماقه خالية من التفكير
فيها بالمرّة .. وإنما هو واهم ..

وقد يكون حبنا هروبا .. قد يكون هروبا من
المذاكرة .. أو من وطأة الحياة اليومية .. أو من
مستوليات البيت المرهقة .. أو هروبا من أنفسنا ..

وفي كل هذه الحالات لا يكون حبنا حبا .. وإنما
يكون عاطفة عليها هباب ثقيل من صراع الأفراد
والطبقات .. وإفراز لعقد نفسية تنضج بالمر والعلقم
والصديد ..

إنك تشاهد حالات غريبة من الحب .. في البيوت ..
وفي أماكن العمل .. وفي المدارس .. أغرب من الروايات
التي تعرضها السينما ..

تشاهد المرأة التي تجرى خلف الرجل وتلهث وراءه
تغريه وتتوسل إليه وتقبل يديه .. وتبكي وتستعطف ..
وتصاب بالاغماء .. وتفقد وعيها على صدره .. وتظل
تطارده حتى يستسلم .. ويصدق ويحبها .. ويتزوجها ..
فماذا تكون النتيجة ..

تبدأ في تعذيبه .. وكفه .. ولسعه .. وكهربية
أعصابه .. والمشي فوق مخه بالليل والنهار .. وهي في
نفس الوقت تمشي على أعصابها هي الأخرى وعلى قلبها ..
وعلى عواطفها التي أهرقتها لمدة سنين في البكاء خلفه ..
ما السبب ؟ ..

ما السر في سكبها الدموع على شيء لا تحس به ؟

ما السر في جريها وراء شيء لا تحرص عليه ؟
 انها تبغثر حياتها ووقتها وشبابها وتخسر على طول الخط
 هل يكون هذا حبا .. لا .. إنه جنون .. هوس ..
 انها لوثة أخرية أخربة التي تصيب هذا الجيل ..
 انه لا يعرف ما ذا يفعل بنفسه .. لقد وجد يديه
 خاليتين من القيد لأول مرة فبدأ يهش ويهش .. بدون
 فكرة واضحة في ذهنه ..

وأنت تعثر على نوع آخر من الهوس .. على الرجل
 الصلب والمرأة الصلبة .. الرجل المتأبى المتعفف، المتمنع الذي
 يغلي في داخله ولا ينطق ... ولا يفصح عن شيء مما يعتل بقلبه ..
 وقد تجد اثنين من هذا النوع يتحابان من الداخل دون
 أن يتبادلا كلمة أو نظرة صريحة أو لقاء .. وإذا تكلمتا
 فهما يطرقان كل الموضوعات إلا الموضوع الذي
 يشغلهما ..

ومثل هذا الحب الذي يولد مخنوقا .. يموت غريقا في
 النهاية .. غريق الواقع والضرورات وينتهي أمر الاثنين
 إلى زواج تقليدى عن طريق الخاطبة .. أو الأم
 أو الأب .. ويفشل الزواج كما فشل الحب .. وينتحر
 الكبرياء على مذبح الغباء والجهل ..

هل يكون هذا حبا .. لا .. إنه مزيج من عدم الثقة
 والجنون والخوف والتردد .. وميراث عتيق من التقاليد
 الميتة ..

انها عفة ضالة ملعونة مثل الحرية العابثة تماما .. ونهاية
 الاثنين الضياع في سلة مهملات واحدة ..

وهناك نوع ثالث يفشل في الحب .. ويعنى هذا
 الفشل أو لا يعنيه .. فيهرب منه بالاغراق في لذات جنسية
 حادة متعددة .. ولا يكف عن التهافت حتى يدركه التعب
 والاضغاث .. وعمر هذا النوع محدود بفترة الشباب القصيرة
 وبعمر الجمال الوردى .. فإذا بدأ الورد يذبل .. بدأت

المضام

أين الحب الصحيح ؟ ..

إن علاقاتنا مشوهة .. لأن مجتمعنا يتصارع ..
ويدخل كل اثنين في سباق غير شريف غير متكافئ ..
كل واحد شعاره .. أريد أن أفوز .. أريد
أن أنتصر ..

كل واحد شعاره .. أنا .. أنا .. أنا ..

والنتيجة أن حبنا يمسخه الغرور .. والأنانية ..
والكبرياء .. والتعاضم .. والأمراض النفسية .. والعقد
حبنا مجرد علاقة ينفث كل منا فيها سمه وعسله
وما أكثر السم .. وما أقل العسل ..

كيف تفسر عواطف رجل لا تحركه إلا زوجات
الآخرين أتكون هذه العواطف حبا .. لا يمكن .. أنها

النهاية .. وهى دائماً بشعة تستدر الشفقة ..

وهكذا تتعاقب أشكال الحب فى مجتمعنا فى حلقات
حلقات الملائكة .. وكباريات آخر الليل ..
وقد تجد بينها قبة شيخ وضع قلبه فى ضريح وأغلق
عليه .. أو صومعة راهبة تصوم سبعة أيام كل أسبوع ..
وقد تنسب قدماءك فى البحث عن حب واحد حقيقى
فلا تجده .. وإذا وجدته تجد عليه شوهة أو أثر حرق
أو بقية من التهاب قديم ..

وتمضى تتسائل بعد أن تكون قد كشفت السر ..
وعرفت سر التشويه فى الداء الذى يكن فى مجتمعنا
وصراعه وفرديته .. تمضى تتسائل بعد هذا .. وما هو
الحب الصحيح ..

ما هى حقيقة الحب ؟

وهذا يعود بى إلى القفل السحري الذى أعبت به
فى يدى باحثاً عن مفتاحه فى ظلمة الليل ..

نوع من المباراة تنتهي فوريتها وحساسها بمجرد الانتصار ..
أنه يريد أن يوضع في محل المقارنة من رجل آخر
وينتصر عليه .. والزوجة في هذه اللعبة مجرد مادة
لغروره .. وأحب .. مسرة عقله لا عاطفة فيها بالمرّة ..
وقد يظل الزوج يكره زوجته حتى يغازلها رجل
آخر فيحتاج ويشتر ويخلق عليها الأبواب والنوافذ ويلقى
بالتليفون في الشارع .. ويأخذ في الالتفات إليها وإلى
محاسنها .. ويأخذ في مغازلتها ..

أ يكون هذا الحب الفجائي حباً .. لا .. أنه مجرد
كرامة .. أنه لا يحتمل أن يكون الفاشل في معركة غزل ..
أين الحب الصحيح إذن .. أين هو تحت ركام هذه
العقد والانحرافات ..

أنه موجود .. مثل الماء في باطن الأرض .. يكفي
أن تدق عليه ماسورة فينفجر في ينبوع لا ينضب ..

الحب إحساس جاهز فطري في داخلنا .. ينمو إذا
واتته الظروف .. وهو ينمو دائماً من الداخل .. بدون
مؤثرات بهلوانية من الخارج .. وبدون تمثيل وافتعال
وكذب ..

وهو يضع ويفقد في اللحظة التي يبدأ فيها الاثنان
يصنعانه صنعاً كما تصنع الأدوية التركيب من اختلاط
العواطف والتأكتيكات والمؤثرات ..

إنه إحساس داخلي ينمر بطريقة تلقائية .. بدون
قصد أو نية .. من التقاء اثنين ..

ويبدأ بإحساس فطري بالسرور والفرح والسعادة
والارتياح لمجرد التلاقي .. بدون الحاجة إلى كلام ..
أو محاضرات .. ثم ينمو ..

ويأخذ كل حبيب يعطى من ذات نفسه لحبيبه دون
أن يدري .. يأخذ في التضحية دون أن يدري أنه يضحي ..

ويتبادل الاثنان اهتمامات كثيرة لا حصر لها .. فكل منهما يهتم بالآخر ويحمل همومه .. ويتعذب بعذابه .. ويقلق لقلقه .. ويفرح لفرحه ..

وكل منهما لا يطلب شيئاً من الآخر .. أنه يعطى ولا يطلب .. أنه يريد أن يرى حبيبته كما هو .. لا أكثر وهو لا يجد حاجة إلى الكذب والادعاء والتثيل وهو يحس بالأمان إلى جواره .. يحس أنه سكن بأوى إليه ويستريح حيث انظر والماء والطعام والفرش المريح .. وهذا الإحساس بالسكن والاكتفاء هو الذي يعطيه الشعور بالأمان .. وبأنه في غنى عن كل الناس ..

وفي حب حقيقي .. توجد لذة من نوع آخر غير لذة الصداقة والانسجام العقلي .. لذة هي مزيج من السخونة والتخدير والتنميل .. ونوم مؤقت في التفكير يبعث في الجسد التأذ والاسترخاء .. ويبعث في القاب تفتحاً

وإشراقاً .. ويجعل الكلام والضحك شبيهاً بالاحتضان ..

وفي حب حقيقي عنيف يمكن أن تؤدي القبلية ما تؤديه لذة جنسية كاملة .. ويمكن أن تكون لمسة اليد شيئاً لذيقاً .. تمتعاً ..

والحب الصحيح خال من الغرض .. وإنما تأتي الأغراض فيما بعد .. حينما يحس كل حبيب أنه عاجز عن الحياة بدون الآخر وأنه في حاجة إليه كل يوم وكل لحظة ولا وسيلة إلى ذلك في مجتمعنا إلا بالزواج ..

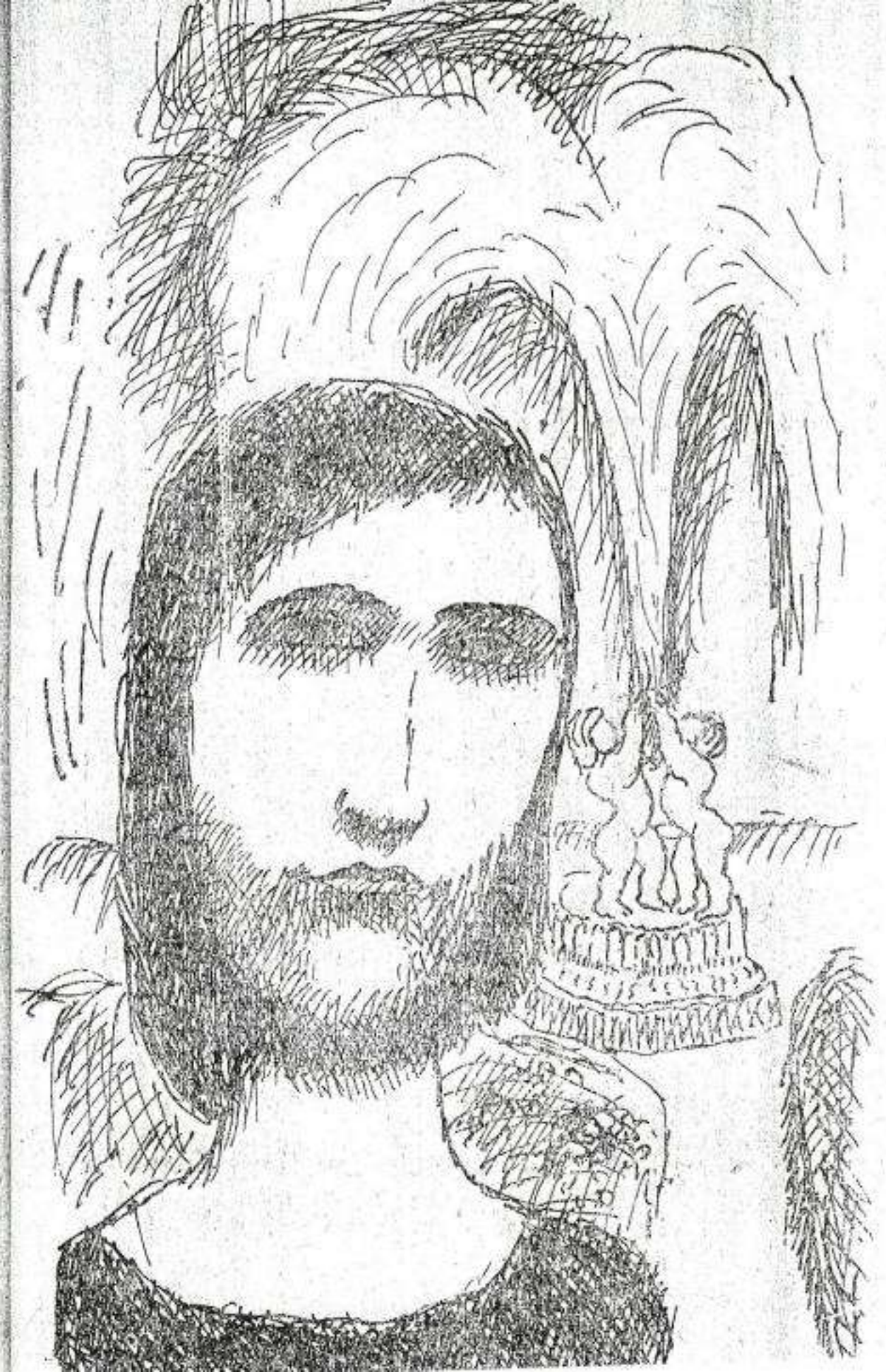
ولهذا لا يكون الزواج هدفاً مقصوداً من البداية وإنما يكون نتيجة يتورط فيها الاثنان لفرط ما هما فيه من الحب ..

حتى الإخلاص لا يتم باتفاق وتعاقد .. وإنما يتم من تلقاء نفسه حينما يحس كل من الحبيين أنه يمتلئ بالآخر وأنه لا يجد مكاناً في نفسه للحب ثان ..

أنه يصحو فيكتشف أنه مخلص .. وأن ذهنه محصور
في شخص واحد .. يدور في فلكه ..

هذا هو الحب الصحيح لكن كيف نحصل عليه
لا توجد إلا وسيلة واحدة .. أن تتغير .. أن نصل إلى
درجة من الطهارة الداخلية .. أن نغسل أنفسنا أولاً بأول
من سموم ورواسب مجتمعتنا وهذا ممكن إلى حد كبير ..
وهو غير ممكن في الطبقات الفقيرة المطحونة التي
تعيش تحت مستوى الحياة .. ولا في الطبقات المتخمة
البليدة التي تعيش في حالة قمار وتبذل ومراهقات وحفلات
وأكاذيب ..

إن الطبقة الأولى في حالة عدم وعي والطبقة الثانية
تعيش حياة تنكزية كرنفالية كل ما فيها مزيف حتى
قطع الثياب .. حتى الانحناءات والمجاملات فرنسية .
إن الحرب الطاحنة بين الأفراد .. والحياة التي تشبه
المزاد .. هي سر المسخ في علاقات الحب والصداقة ..



وليس معنى هذا أن نقف عاجزين عن الحب .. ففى
الإمكان دائماً أن نفعل شيئاً . :
فى الإمكان تطويع السلوك لعلاقات المجتمع المريضة . :
وفى الإمكان تعصيته ..
فى إمكانك أن ترفض الرشوة والسكذب والسرقة وفى
إمكانك أن ترفض الدخول فى سباق مهين .
وفى إمكانك أن تقاوم الغرور والأنانية وأن تسكتشف
عيوبك النفسية وتعالجها .
فى إمكانك أن تقوم سلوكك بالنقد ..
فى إمكانك أن تضيف سوسسته عند كل معاب اجتماعى
تقع فيه فتجنب الإصا به بجرأح ورضوض فى أخلاقك .
فى إمكانك أن تتجنب الترخص والصغاز فى سبيل
متعة مؤقتة .. وانتصار تافه ..
فى إمكانك أن تفعل كل هذا وأكثر إذا بلغت النضج
وأدركت القيم وأحسست بوزن كل قيمة ومكانها الطبيعى :
وأنا شخصياً أعتقد أن الحب الصحيح موجود .. ويمكن
ويستحق أن نتعب من أجل الحصول عليه ..

والى

محاولة لفهم الخير والشر

إبليس

الإنسان مصاب بذعر ..
في خيالاته .. وأحلامه .. وتصورات .. شبح يطاردة
على الدوام هو شبح خطايا ..
وهو قلق حائر .. يلتمس لنفسه العذر مرة في
إغواء إبليس ..
ومرة أخرى يعترف بخطيئته ويحسو على رأسه التراب
ومرة ثالثة يتمرد ويحطم ألواح الوصايا ويكفر بكل شيء ..
ومره رابعة يغرق في بحار التأمل ويفلسف ذنوبه ..
ولكنه واقع في المشكلة مهما بدا أنه تخلص منها ..
أنها موجودة في كتبه وأدبه وفنونه ..

في المثولوجيا الأغريقية قصة طويلة جميلة عن أصل الشر ..

كان العالم في بدايته شبهها بالجنة . : وكان البشر يعيشون خالدين . وكلهم من جنس واحد لا يلد .. ولا يولد .. ولا يتزاوج ..

لم يكن فيهم نساء ولا أطفال ولا شيوخ .. ولم يكن فيهم مرضى ولا أشرار ولا معاتية ..

وكانت الأرض تعمل من أجلهم فتنبت الزرع بدون محراث وبدون قاس وتقدم لهم فاكهتها وثمارها .. وهم مزاحون سعي سروجها الخضراء يأكلون ويشربون ويمرحون ولا يفكرون في شيء .

وأراد الرب زيوس أن يمتحنهم فابتلاهم بالفصول وإذا بهم يفتحون عيونهم في أحد الأيام فيجدون الأرض عارية جرداء باردة ترتعد في ثوب مهلبل من ثياب الخريف

ولم يجدوا بدا من العمل ..

وتلوثت أيديهم بالتراب والطين والعرق فسخطوا على الرب وامتنعوا عن تقديم القرابين إلى مذبحه ..

وهنا أدرك زيوس أنهم من جنس لعين .. وأنزل عليهم عقابه .. وكان هذا العقاب هو المرأة .. فقد أنزل عليهم باندورا العذراء الجميلة الساحرة التي سواها بيديه .. ووضع فيها كل فتنة العالمين .. وأعطائها هدية تقدمها إلى أول زوج تزوجه .. عبارة عن قمقم مغلق .. أمرها ألا تفتحه أبدا .. لا هي ولا زوجها ..

وكان الرب يعلم بحكم الفضول الذي خلقه فيها أنها سوف تفتحه ..

وفتحت باندورا القمقم .. وانطلقت منه زبانية الشرور ترفرف في السماء بأجنحة تقطر دما وتصرخ صراخا رهيبا ..

وعم الأرض الفساد والمرض والجهل وأكلتها الحروب
والمجاعات .. وتدهور الجنس البشرى إلى سلالة من
الحيوانات تعض بعضها بعضا ..

وبلغت نقمة زيوس غايتها فأمر السموات أن ترعد
ومياه البحر أن تمور .. والسحب أن تتجمع وأن تبصق
ما في داخلها من ماء فتغرق الأرض بمن عليها .. وما لبث
أن شمل الأرض طوفان أهلك أخضرها ويابسها ..

ثم ذهب غضب الرب وأدركه اللطف بعصاه فأمر الماء
أن ينحسر وكان جنس آدم قد فنى كله فيما عدا زوجين
ظاهرين اعتصما بقمة جبل باراناسوس باليونان هما
دوكاليون وبيرا .. كتب لهما الرب النجاة .. وكتب للأرض
أن تعمّر من جديد بنفسهما .

* * *

وقى هذه الأسطورة ملاح من الأفكار الدينية

عامة .. ففيها فكرة الخطيئة وفكرة إبليس وفكرة
الطوفان ..

والكتب القديمة تتفق كلها حول ميلاد فكرة الشر ..
أنها جميعا تقول أن الشر قوة خارجة عن الإنسان
تغرية وتفتنه .. وتوقعه في حبالها .. قوة ميتافيزيقية من
وراء الطبيعة ..

* * *

ولكن الكتب تغير آراءها بسرعة .. لأن الناس
يتساءلون .. والإنسان مدمن تساؤل لا شفاء لإدماة
أبدا ..

والسؤال الذى ظل يلح ويلح على ذهنه هو سؤال
محير ..

أمن الممكن أن يعيش الإنسان فى جزيرة منفردا ..
متوحدا ويكون فاضلا أو شريرا وكيف ؟

كيف ؟

أيمكن أن يكون إلقاء الحصاة في الهواء شرا ؟

أيمكن أن يكون تجوله عاريا بدون ورقة توت شرا ؟

وإذا ضرب الصخر بقدمه وبصق عليه أيمكن أن يكون قد

فعل شرا ؟

لا .. لا يمكن أن يكون أى فعل من هذه الأفعال

شرا ..

أن المنفرد لا يمكن أن يوصف بأنه فاضل

أو شرير ..

أن الأخلاق تظل بدون معنى .. حتى ينشأ مجتمع ..

وتنشأ علاقات واحتكاكات .. ومنافع وأضرار ..

وملذات وآلام يبادها البشر .. وحينئذ تولد كلمة شر ..

وكلمة خير ..

أن الدعوى بأن الشر قوة ميتافيزيقية من وراء

العقل دعوى خرافية ..

أن الشر ابن المجتمع ..

وكانت هذه الحقيقة جديدة ومحيرة ..

محيرة لأن معناها أن يبدأ المفكرون من جديد

في البحث عن نظريات جديدة لمعنى الخير والشر ..

وبدأت عهود طويلة من التخبیط ..

قال سقراط أن الفضيلة هي المعرفة .. والريضة هي

الجهل .. وأن السبيل إلى السلوك الصحيح هو أن يعرف

صاحبة أين السبيل الصحيح ..

إن العقل هو أداة الفضيلة ..

وقال أرسطو أن العقل يقودنا نحو الوسط ... يقودنا

نحو (العفة والشجاعة والسخاء) .. لأن العفة وسط بين الشهوة

والبرود .. والشجاعة وسط بين التهور والجهن — والسخاء

وسط بين الاسراف والبخل ..

ومضى سنيكا خطوة أخرى فقال أن العقل يجب أن

(م ٤ — لابلاس)

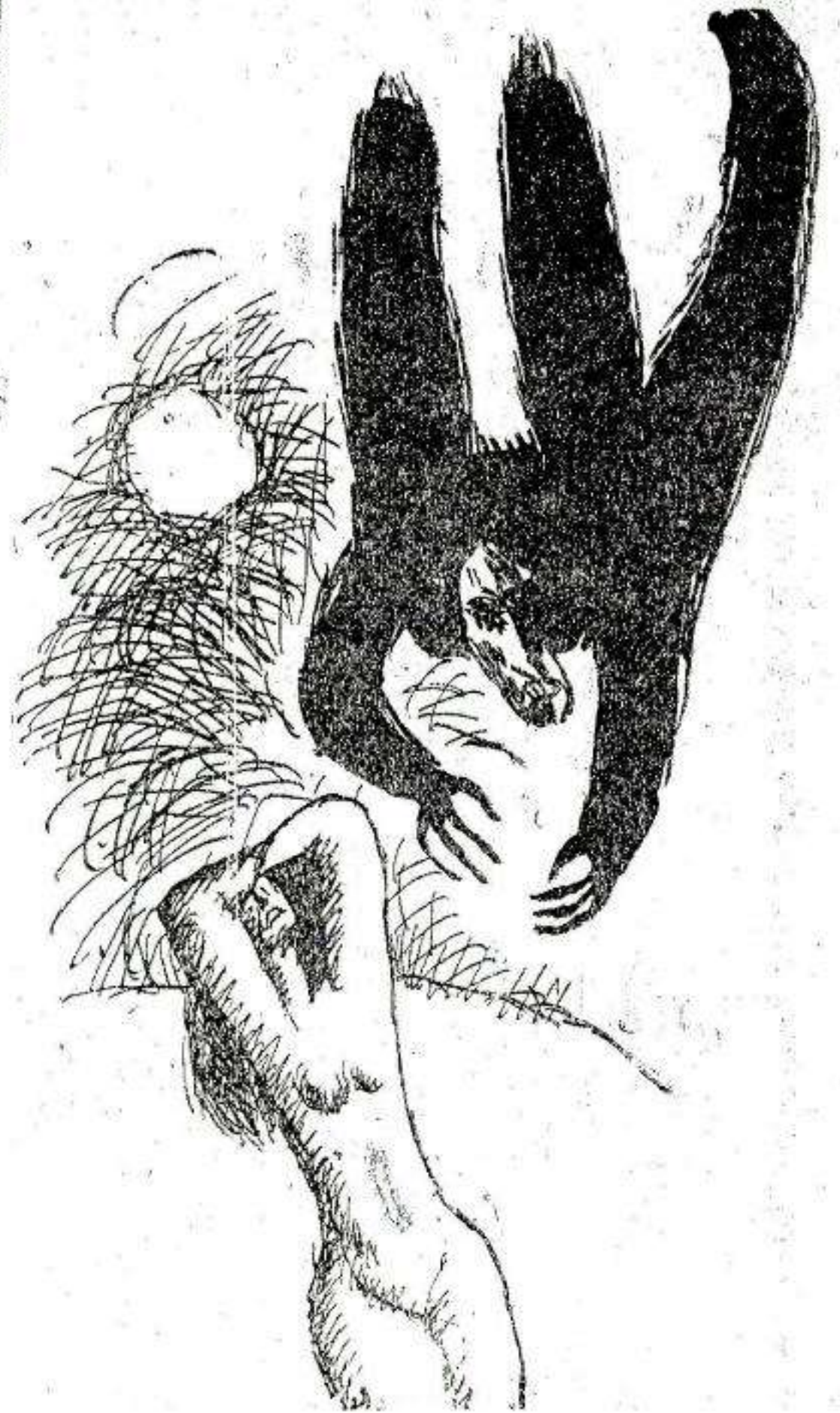
يسود كل الرغبات .. وأن الفضيلة هي الامتناع ..
وضبط جميع الرغبات... هي حياة رهبان يأكلون حساء الشعير
ولا يقربون النساء ..

العقل .. العقل ..
ومضت مئات السنين .. والناس الفضلاء هم العقلاء
وخدمهم ..

ثم طلع نيقشه وداروين وشوبنهاور وميكافيلي بمذهب
آخر هو القوة ..

أثبت فرويد في ثلاثة آلاف صفحة أن العقل ضعيف
ضعيف جداً .. مجرد قشرة تغلي تحتها الغرائز والرغبات
وأن الرغبة هي التي تقود .. وأنها هي العقل الحقيقي ..
وقال داروين أن الحياة صراع وأن البقاء للأصلح
وأن قوة الناب والمخلب هي التي تحكم الأرض وليست
الفضائل ..

وقال شوبنهاور أن العقل خادم للرغبة .. وأن درهم



رغبة أقوى من قنطار منطق .. وأنا نطالب الأشياء
لأننا نرغبها وليس لأنها معقولة ..

ونظر ميكافيللي حوله بدهاء السياسى ليستخلص
حكمته العملية الشهيرة ..

ما دام المنطق لا يزن شيئاً .. والقوة هى كل
شئ .. فعلياً أن نصل أولاً ونصبح أقوياء .. وأى
طريق يوصلنا هو طريق فاضل .. والغاية تبرر الوسطة ..

وأمسك نيتشه بقيمارته المجنونة وانطلق يغنى :
أريد أن أعيش على حافة بركان ..
أريد أن أحيى فى حرب دائمة ..
أريد حياة مثل الشعلة ..

.. دافقة بالقوة والخطر ..
.. وإذا كانت الخطيئة سبيل ..

فسرنا أنفسنا وأروى بها شجرتى فلا خطيئة فى
نظري سوى الضعف ..

ووقف رجل الشارع يتلفت حوله بعقله البسيط .
يجهد نفسه فى التفكير .. فقد ورث عن آباءه فضيلة
قيمة أثبتت صلاحيتها دائماً هى .. الحذر ..

أن الفضيلة عنده هى أن يفعل أى شئ فى الخفاء ..
بعيداً عن أعين الشرطة ..

وفى الجبال والبرارى والصحارى .. ظل الراهب على حاله
لم يداخله شك فى كنهه القديمة ...

أن الفضيلة عنده هى طاعة الله .. والرزيلة طاعة
اللس .. والسييل إلى إدراك الخير من الشر ليس العقل
المنطق وإنما الضمير ..

والضمير عضو سماوى روحانى مركب فى الإنسان
أوامره مطلقة .. ونواهيه مطلقة فلنستمع إذن إلى
ما تقوله ضمائرنا ولنكف عن السفسطة ..

وظل التخطيط على أشده بين هذه الأحزاب ..

كل حزب يحاول أن يؤيد رأيه . . ويفند رأى الفريق الآخر . . والحقيقة ضائعة . .

ثم ظهر حزب جديد . .

حزب متواضع لا يتلفع بالأسرار . . ولا يتحدث بالرموز والطلاسم . . ولا يستعين بالألفاظ والاصطلاحات المعقدة . . وإنما يبدأ بتسجيل الملاحظات التي يشاهدها في الواقع البسيط . . ويبحث عن الحلول في التجربة الواقعية لا في دماغه . .

وكان أول سؤال حاول أن يجيب عليه . ماذا يفعل الناس الفضلاء في كل مكان ؟ وكان الجواب محيراً في البداية . .

أن الرجل الشرقى يعطى رأسه حينما يريد أن يلقى أحداً باحترام . . والغربي يكشفها . . .

والمرأة العربية تجدد من الفحش أن تكشف وجهها أمام الناس . .

والمرأة الصينية تجدد من الفحش أن تكشف قدمها . وتعدد الزوجات فضيلة في الحجاز . وجريمة يعاقب عليها بالسجن في ألمانيا . .

٨ والتابوت هدية حسنة تدل على حسن الذوق إذا قدمت لشيخ مسن في الملايو . . وهي غاية في الوقاحة وسوء الذوق كهدية في القاهرة . .

٩ والزنا نوع من حسن الأدب بين قبائل الاسكيمو . . إذ يبائع الزوج في إكرام ضيفه فيقدم له زوجته . . وهو في الصعيد عار لا يغسله إلا الدم . . وفي فرنسا مسألة ثانوية يمكن أن يمحوها عتاب رقيق . .

١٠ وقتل زنجى في أمريكا كان إلى عهد قريب احتياطاً ضرورياً لصيانة الجنس ونظافته

أتكون الفضائل والرذائل مجرد تقاليد محلية ؟

أتكون المسألة كلها نسبية تنعدم فيها المقاييس . .
فما هو أخلاقى فى مكان لا أخلاقى فى مكان آخر . بدون
قواعد سوى مزاج الناس وتعودهم ؟ . أم أن هناك
قانوناً يحكم هذا الاختلاف . .

لقد كانوا يعلموننا فى الحساب أن البسط والمقام
يمكن أن يتغيرا وتظل قيمة الكسر الحسابى ثابتة . .
فالنصف هو نفسه ٢ : ٤ وهو نفسه ٤ : ٨

أىكون تبدل الأخلاق بين الأمكنة المختلفة والأزمنة
المختلفة هو تبدل من هذا النوع . .
أىكون تغيراً يخفى قاعدة ثابتة . .
وما مى هذه القاعدة . .

ابليس يلد ذرية

هل نعيش فى عالم كل شىء فيه نسبي حتى الفضائل ؟
أىكون القتل والسرقة والزنا مسائل تتغير فيها الأحكام
من زمن إلى زمن ومن مجتمع إلى مجتمع ومن بيئة إلى بيئة
ولا قاعدة ثابتة تضبطها .

أتكون المسألة مسألة هوى ومزاج . . أم أن هناك
مقياساً ؟

لنفكر من جديد :

متى كان تعدد الزوجات فضيلة ؟

لقد كان هذا فى مجتمع بدوى يضرب خيامه فى الصحراء
مجتمع فقير قليل العدد . . تتحارب فيه القبائل عشرات
السنين من أجل بر أو عين ماء عذبة . . ويهلك فيه من

الرجال أضعاف ما يهلك من النساء . .

وفي مثل هذا المجتمع لم يكن زواج الرجل بامرأة واحده .
ممكنا لأن عدد الرجال لا يكفي . .

وكان مثل هذا النوع من الزواج يحد من قدرة القبيلة على
التناسل . .

والتناسل كان سلاحاً يعتمد عليه البدوى ليحارب طبيعة
قاسية تحاول قتله . كان سلاحاً يقيه الفناء والانقراض . .

كان البدوى يحارب السبع ويحارب المطر والسيول . . .
لا بالبندقية . . ولا بالعمارات الحديثة المبنية بالمساح وإثما
بالذرية الوفيرة . . فلو أكل السبع أحد أولاده . . فهناك
عشرة أولاد باقون . .

ولا سبيل إلى نسل وفير سوى تعدد الزوجات ولهذا
كان تعدد الزوجات فضيلة . . لأنه عمل نافع للحياة . وسبيل
إلى البقاء . .

هناك قانون إذن . . قانون مستتر يحكم على أفعالنا بالخير
والشر . . هو الفائدة والنفع . . فما يفيدنا ويساعدنا على النمو
وعلى مواجهة الخطر هو عمل فاضل . . وما يضرنا هو عمل
شرير . .

ولو تغيرت ظروف حياتنا بحيث يصبح الزنا هو أنفع
العلاقات بين رجالنا ونسائنا لتغير حكمنا على الزنا من تلقاء
نفسه وأصبح استحساناً . . ولقلنا عنه أنه خير . .

* * *

ونحن نسعد ونفرح إذا حصلنا على منفعة ونشقى ونتعذب
إذا وقعنا في ضرر . .

ولهذا كانت الحاسة الحقيقية التي ندرك بها خيرنا من
شرنا ليست الضمير . . وإنما سعادتنا وشقاؤنا . .

إن الخير في منتهاه هو ما يحقق لنا النفع والسعادة . .
والشر هو ما يوقعنا في الضرر والشقاء . .

وهنا يطل علينا سؤال مستعجل .. هو ..

منفعة من .. وسعادة من ؟

ماذا نقصد حينما نقول أن الفضيلة هي تحقيق المنفعة

والسعادة ؟

هل نقصد تحقيق هذه المكاسب للفرد أم للجماعة ؟

إننا لا نعيش وحدنا . بل نعيش مع الغير .

وسعادة الواحد منا قد تعني شقاء الآخر . فماذا نعني

بكلمة منفعة ؟

إننا نعني منفعة الكل طبعاً .. لأن أسلم الطرق إلى

نفع الفرد هو الطريق الذي ينفع الكل في نفس الوقت ..

لأنها تكون منفعة خالصة بدون اعتراضات .. منفعة

باقية مأمونة .

ونحن حينما نرصف شارعاً بالأسفلت نحكم عليه بأنه

طريق نافع .. ونحن لا نعني أنه نافع لقطاع الطرق ..

وإنما نعني أنه نافع للمجموع كسبيل مطلق من سبيل

المواصلات تطرقه كل الأقدام ..

وهذا يضع قدمنا على أول الدرج ..

لقد وجدنا القاعدة ..

إن العمل الفاضل هو العمل النافع .. النافع لأكثر

عدد من الناس .. السار لأكثر عدد من أفراد المجموعة

الإنسانية ..

وهذا يؤدي بنا إلى الجذر الاقتصادي للأخلاق

إن كلمة نفع كلمة اقتصادية .. والاقتصاد مربوط بالسياسة ..

والسياسة مربوطة بالتاريخ .. وهذا يجرنا إلى محاولة تطبيق

نظريتنا على التاريخ .

لقد بدأت حياتنا بنظام بدائي مفكك .. هو مجتمع الصيد

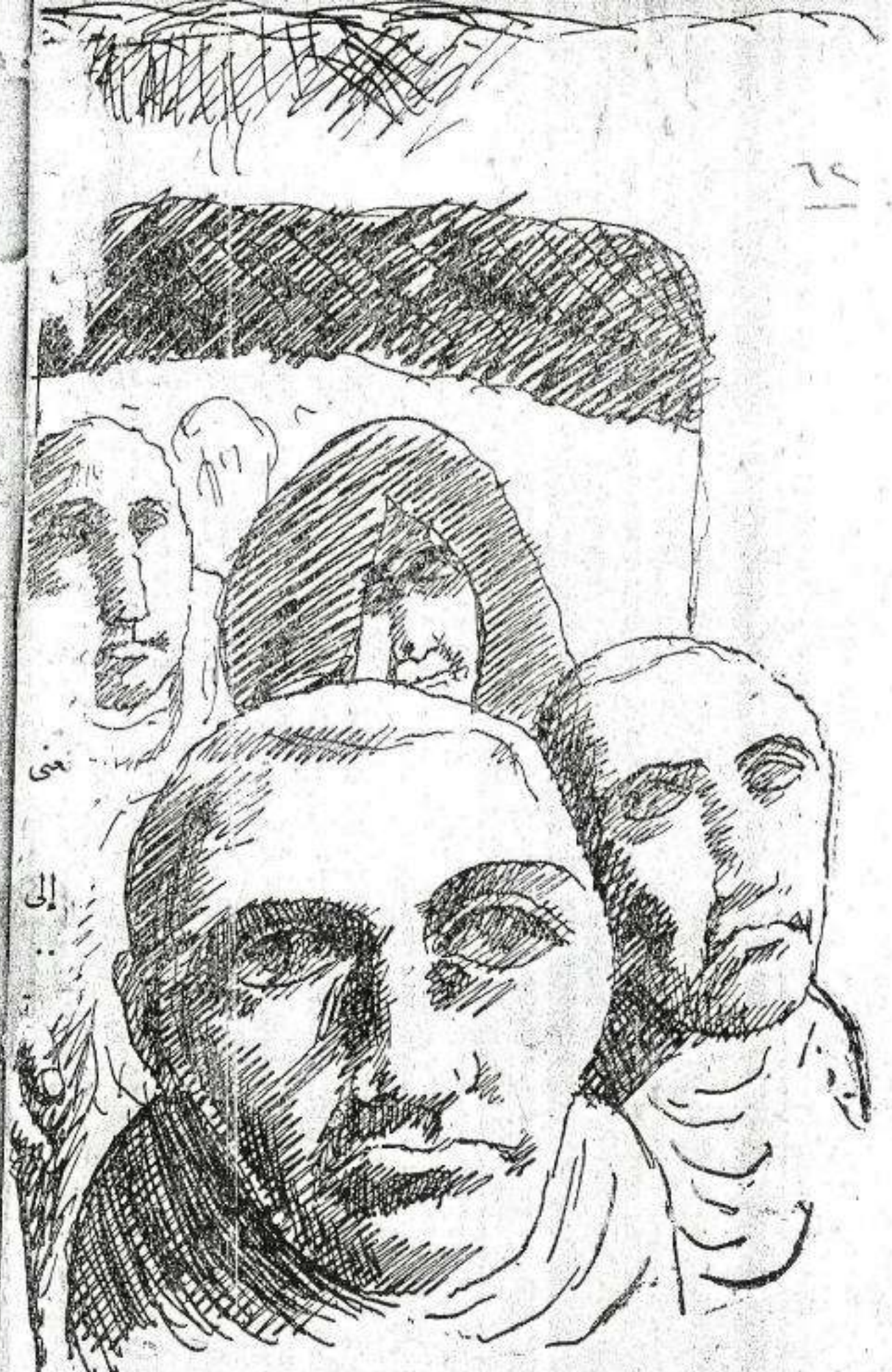
القنص .. وهو مجتمع مهدد تنعدم فيه الضمانات ولا تنفع فيه إلا خصلتان .. الوحشية والشراسة ..

كان الصياد الناجح في ذلك الزمان هو الرجل الوحش الذي يذبح أى شىء ثم يأكله نيتاً إلى آخر بضعة فيه .. لأنه لا يدري متى يعثر على الوجبة الثانية ..

عد ولم يكن في ذلك المجتمع البدائي نظام للملكية ولا نظام الإجماع ، ولهذا لم تكن السرقة ذات معنى ولا الزنا ذات صوغ .. كانت مجرد أفعال لا توصف بالخير ولا بالشر . وكانت الفضائل هي أن تكون وحشاً شرها .

ثم حدث الانقلاب الأول ..
! اكتشافنا الزراعة ..

فتطورت حياتنا واستقرت . وعرفنا الاطمئنان والسلام .. وأصبحت الوداعة مطلوبة أكثر من الوحشية



والزواج مطلوباً أكثر من الزنا لأنه يمنح الفلاح خادمة تخدمه مجاناً في الحقل هي وأولادها ..

وأصبحت العفة ممكنة ومستحبة لأن الزواج ميسور بمجرد البلوغ دون حاجة إلى انتظار شهادة جامعية ووظيفة فكل ما تطلبه الأسرة هو ذراع قوية ومحراث .

وهكذا وجدت الأخلاق المسيحية طريقها . وظهرت فضائل جديدة مثل الوداعة والحب والعفة .. والزواج من امرأة واحدة والرباط المقدس الذي لا ينقسم باطلاق .

ومالبث أن حدث الانقلاب الثاني .. وكان انقلاباً مهولاً .. هو الصناعة ...

لقد اكتشفنا ينابيع جديدة للقوة هي الفحم والحديد والبخار والكهرباء تضاءلت إلى جانبها سواقي الحقول .. وشواديفه ، وفقدت سنابل القمح جاذبيتها .. فهجرنا الريف وتجمعنا في المدن في شوارع قذرة ومصانع مظلمة رطبة يملأها

الدخان .. وتفككت الأسرة وذهب كل ولد إلى مصنع يعمل وحده ويكسب وحده .. ووجدت النساء إقبالاً على توظيفهن لأنهن أرخص من الرجال ، فتركن البيت . ووجد الأطفال أعمالاً مهلكة بأجور أقل من الإثنيين . وهكذا بدأت الأسرة تنهار ، وعجل بانهارها أن الزواج أصبح عسيراً لأن العمل بالمصانع في حاجة إلى كفاية علمية وتدريب والتعليم في حاجة إلى نفقات وسنوات طويلة من العمر . فاذا غامر الرجل وتزوج وجد أن زوجته عالة . وأطفاله عالة أكثر لأنهم في حاجة إلى تعليم . ولن يجنى من وراء تعليمهم شيئاً لأنهم سوف يتفرقون في الجهات الأربع ويعيش كل منهم وحده .

وكانت الصناعة طوال هذه المحنة تعمل بلا قلب . كانت كالوحش الذي يمضغ ضحاياه في آلية . فكلهما أن تشتري بالرخص وتبيع بالغالي ..

وأتلقت في سبيل ذلك الشيء .

أتلقت الصدّاقة وحوّلتها إلى تنافس ثم حوّلت التنافس إلى حرب ثم إلى استعمار سافر .

وهدمت الحرب البقية الباقية من الأخلاق . . فقد عودت الجند الوحشية والأباحية وبخست قيمة الحياة لكثرة ما أطاحت من رؤوس . . ومهدت لظهور العصابات والجرائم القائمة على القلق والهستيريا . . وحطمت الإيمان بالعناية الإلهية . . وانتزعت من الضمير سند العقيدة الدينية وفي النهاية أدت إلى ظهور جيل مخدوع ألقى بنفسه في أحضان الاستهتار والفردية والانحلال .

أكان من الممكن والزواج مستحيل . . والمثل منهاره والحرب تدق الباب . . أن تظل العفة المسيحية على قداستها ؟ . . لا . . لقد كان من الطبيعي أن تصبح العفة مثار سخرية وأن تتحلل الأسرة ويصبح الاتصال الجنسي قبل الزواج مألوفاً . وتحديد النسل ضرورياً . واستخدام موانع الحمل للاستمتاع بدون حمل احتياطاً مذهباً .

وماذا كانت الدولة تفعل أثناء هذا التطور الهدام ؟ كانت تساعد على الهدم .

كانت تمتص الأخلاق العائلية وتحول الولاء الأسرى إلى إلى ولاء للحاكم وطاعة لمأمور البوليس وعضو الشيوخ . ثم تعتمد على قوة السلاح لتسكت كل اعتراض . .

وكانت بعد هذا توجه أجهزة المجتمع لما يخدم مصالح الأقليات التي تمثلها . . وتشكل له معنوياته على النحو الذي يفيدها . . .

الدين . . والعرف والتقاليد . . والقانون . . والأخلاق . . كل هذه المعنويات كانت تعاني تأثيرين هائلين من أسفل ومن أعلى يحاولان تشكيلها .

كانت العوامل الاقتصادية تعمل من أسفل . وعوامل السلطة السياسية تعمل من أعلى . .

وفي النهاية كانت تخرج من الصراع فلسفات وفضائل غريبة . كانت فضيلة القوة التي نادى بها نيشته تجهز لظهور

الفاشية والنازية وتعد الازدهان لسياسة الرجل القوى .
والجنس القوى . وفلسفة الحرب والتوسع والعدوان المقنع
وكانت فلسفة الضمير المربك في الإنسان من قبل
سلطة روحية تبعد الذهن عن التفكير الحر لأنها تقف
عند حدود الأوامر المطلقة والنواهي المطلقة التي يصدرها
الضمير دون أن تجرؤ على الشك فيها ..

كانت هذه الفلسفة اللاهوتية بقية من العهد الاقطاعي
الذي كان يعتمد على أرستقراطية مطلقة في أحكامه ..
لا تراجع ... ولا تنقض ..

ولكن الصناعة التي أوقعت العالم في كل هذه الشرور
منحته نعمة واحدة .. هي نعمة العلم والتفكير العلمي
والتجربة الواقعية في المعمل .

وقد بدأ الإنسان يطبق هذه التجربة العملية على المجتمع
فوصل إلى حل اللغز الذي استعصى عليه طوال هذه السنين
وفهم قانون الخير والشر .

فهم أن الخير هو المنفعة للجميع .. وأن الشر هو
الضرر للجميع ..

واكتشف أن إبليس قد ولد ذرية من الآبالة
هم المستعمرون والسماسرة يعملون كل يوم على أن يكون
الضرر لكل .. والنفع لقلائل يعدون على أصابع اليد
الواحدة ..

ولم يكن هذا إلا اكتشافاً جديداً .
كان في الكتب القديمة : . القديمة جداً . ومضات من
هذه الحقيقة الكبرى . .

في إحدى صلوات بوذا يقول المعلم الكبير .
فليفض قلب كل إنسان .
بحب رحيم .
تجاه جميع العالم .
دون سد أو حائل .

فليعيش جميع الأحياء .

الآقوياء منهم والضعفاء .

الكبار منهم والصغار .

الذين يسكنون قريباً .

والذين يسكنون بعيداً .

الذين ولدوا .

والذين سيولدون .

فليعيشوا جميعاً .

دون استثناء .

في أمن وسلام .

ولتهطل الأمطار في الوقت المناسب .

ليعم العالم الرخاء .

أ كانت هذه الرؤيا الصافية للمعلم الكبير ذات
علاقة بديانته .

وهي الديانة الوحيدة بين ديانات الشرق التي خلت كتبها
من عقيدة الآخرة .. والحساب .. والعقاب ..
وإبليس .. والروح .. والله ..

هل عثر بوذا على هذه الحقيقة لأنه لم يشطح بذهنه في
ظلمة الغيب .

أم أن إبليس كان غائباً حينما إنطلق بوذا يفكر .

إبليس يموت

الطبيعة بلا أخلاق ..

لا تستطيع أن تقول للحجر عيب .. أنت مخطيء
لأنك تتدهور من أعلى الجبل إلى الأرض ، ولا تستطيع
أن تهم الماء بالانحطاط .. لأنه ينحدر من أعلى
إلى أسفل .. ولا تستطيع تعاقب النمر لأنه اعتدى على
الجل وأكله بدون إنذار ..

أن الطبيعة ملطخة بالدم نابا ومخلبا .. والأخلاق
شيء ليس في الطبيعة ولكنه في الإنسان .. وهي من
إنتاج المجتمع الإنساني واختراعه ..

الأخلاق نشأت وتطورت مع الأدوات التي اخترعها

الانسان البدائي . . مع النبل والمقلاع من أجل تأمين حياته . .

صنع الانسان النبل والمقلاع ليهاجم الأسد وحده . .
ولجا إلى الاخلاق ليهاجم الأسد في جماعة متعاونة من أصدقائه . .

وكانت الأخلاق في بدايتها محالفات عقدها الأفراد بينهم وبين بعض لمواجهة عدو مشترك هو الطبيعة . . ثم تطورت هذه المحالفات وأصبحت عادات وعرفاً وتقاليدا .
ثم تجمدت في المجتمع الحديث في شكل أجهزة بوليسية هي سلطات الدين والسياسة والقانون . .

وكان هدف هذه الأجهزة هي مساندة الضمير الفردي وتأيينه بقوى خارجية حتى يشعر أنه ملزم ليس فقط بحكم ضميره بل بحكم القانون . .
وهذا يدل على تسليمنا بأن ضمائرنا غير رادعة .

وأنها ثانوية . . تقليدية . . وليست أجهزة روحانية أوامرها ونواهيها مطلقة كما تدعى الكتب القديمة . .
والضمير ليس شيئاً مطلقاً بدليل وجود عدة ضمائر مختلفة . . فكل مناله ضميره الذي يختلف عن ضمير الآخر . . وكل منا يخضع في أفعاله لرقابة داخلية . . ذات لأئحة خاصة من صنعه هو . ولا توجد لأئحة مطلقة ولا ضمير عام .

ولهذا كانت الفضيلة لا توصف بأنها طاعة الضمير . .
لأن الضمير اصطلاح فردي . ولأن هناك ألف ضمير . . وضمير . .

ولمّا توصف بأنها استهداف النفع وتحقيقه للإنسانية . .
والمساهمة في تنمية الحياة والوصول إلى السعادة . .

أن كل الطرق الأخلاقية تنتهي في روما عند السعادة . . غاية الغايات جميعاً . . حتى الأنبياء الذين

بهذا يمكن أن نرسم أمامنا لوحة واضحة نضع فيها
القيم المختلفة .. كل قيمة في مكانها وقد فهمنا أين
الخير .. وأين الشر .. وأين الضمير .. وأين إبليس ..

وهذه اللوحة الواضحة لا توجد في ذهن كل إنسان
وإلا لكان إبليس قد مات من زمن طويل .
أن إبليس ما زال يعيش لأن مجتمعنا مضطرب
وأذهاننا مشوشة ..

نحن نتعلم في طفولتنا حكاية إبليس .. ونربطها بما
يقوله الأب عن العيب .. وقلة الأدب .. والحرام ..
ونتعلم كلمة الضمير .. ونربطها بما يقوله الأب عن
الواجب والأصول والحلال .. فتتربى فينا ملكة عقلية
منفصلة هي التي يسميها فرويد الرقيب .. ويتربى فينا
صوت داخلي يوجهنا نحو الصواب .. فإذا لم نبغ النضج
الفكري الضروري .. ولم نفهم القوى التي تحكمنا في
وضوح .. تحول صوت الرقيب إلى ديكتاتور يطبق

سعوا إلى المشائق والمحارق كانوا يطلبون السعادة ..

كانت سعادتهم في هذا الطريق الضيق الشائك المخوف
بالعذاب ..

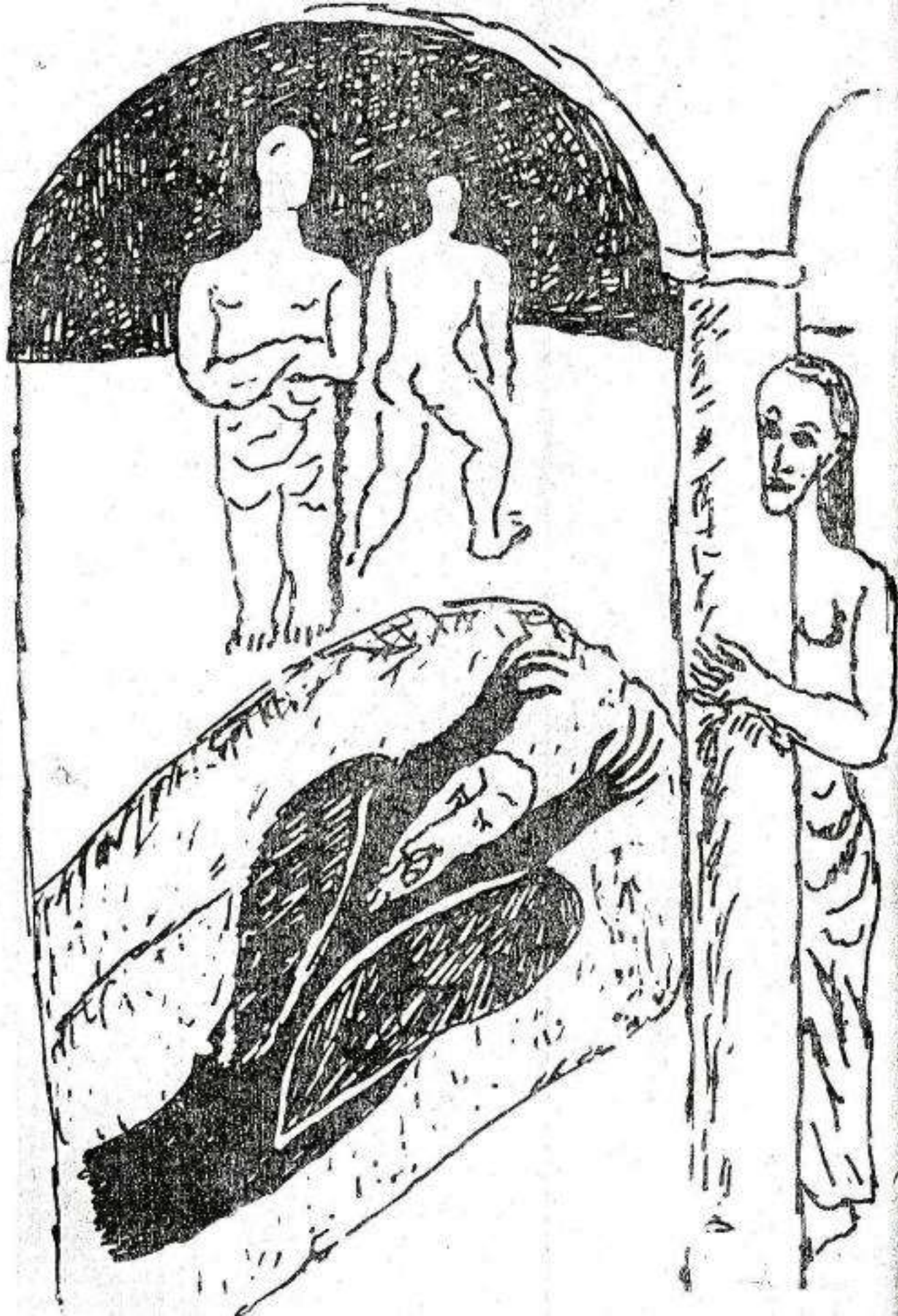
وكلمة تضحية ليست دائما صحيحة فالشهداء العظام
والمصلحون لم يكن في مقدورهم عمل آخر غير أداء
رسالتهم ..

كان تحقيق رسالتهم هو النهاية الوحيدة السعيدة في
نظرهم .. وأي تنازل وأي استسلام .. كان بالنسبة
لهم شقاء لا يحتمل ..

والنبي لا يطلب الحق عن تضحية .. ولكن عن
إدراك بأن الحق هو الكسب الوحيد الذي يستحق
منه العناء ..

خراقة الأمر المطلق والنهي المطلق .. وأصبح مثل الكرباج
يسوطنا من الداخل ..
والمرضى بعقدة الشعور بالذنب .. هو نتيجة هذه
الحالة ..

فالمريض بعقدة الذنب يشعر أنه مطارد بصوت
داخلي يصرخ فيه على الدوام .. أنت مخطيء .. أنت
مذنب .. أنت حقير .. يجب أن تدفن نفسك حياً .. يجب
أن تحرق نفسك بالنار .. يجب أن تقطع ذراعيك لأنهما
فعلاً هذا الفعل وتفقاً عينيك لأنهما رأيا هذا المنظر ..
والمرضى في غمار هذه المحنة يشعر بكراهية شديدة
نحو نفسه .. ويشعر بكراهية شديدة نحو الناس .. وهو
يقسو على نفسه ويقسو على الناس .. وإذا كان حاكماً أو
ملكاً .. فإنه يكون ملكاً مستبداً طاغية .. ونهاية هذه
الحالات هي نوبات هستيرية تلقى بأصحابها في مستشفى
المجاذيب ..



والظاهرة الأخرى من ظواهر التشويش والتخبط تبدو في علاقة المجتمع بالفرد . . فالمجتمع يقبض هذا الضمير ويحوّله إلى سلطات فعلية وسجون ومعتنلات ولوائح باليمنوعات ولوائح أخرى بالأشياء المرغوبة وهو يكافئ أفرادهم بالميداليات ويعاقبهم بالكراييج عند اللزوم . .
والفرد أمام هذه المجموعة من اللوائح والأوامر والنواهي هو واحد من ثلاثة . .

أما أنسان سلبى بلا إرادة وبلا عقل يخضع خضوعاً كاملاً لهذا التنظيم . . وهو في هذه الحالة يفقد حياته . . ويتحول من فرد إلى مجرد قطعة مكررة في آلة . . يعيش حياة عامة دون أن يتفرد بشيء خاص به وهو بهذا يموت . . ويعيش المجتمع حياته بالنيابة عنه . . والمجتمع بهذا يفقد شخصاً نافعا . .

وإذا كثرت الأفراد من هذا النوع تحول المجتمع إلى كتلة غبية جامدة ليس فيها حياة ولا خلق ولا إبداع :

والحالة الثانية هي حالة الفرد الذي يرفض المجتمع ويرفض سلطاته وتقاليده ويدخل قوقعته ويعتزل عن الناس ويردد كلمة روسو فلنعد إلى الغابة . . ويبنى له عالماً خاصاً به من أحلامه وأوهامه ومثالياته . . وهو بهذا الرفض السلبى يحول المجتمع إلى آلة مفككة مشلولة لا نفع فيها . . مؤلفه من أفراد مفككين . . يعيش كل واحد منهم منعزلاً في عالمه

والحالة الثالثة هي حالة الفرد السليم الواعى الذى يطاوع مجتمعه فى تمرد . . ويقبل أوامره ونواهيهِ بعد إختبار ومراجعة . أنه الفرد الناقد . . ورسالة الحكم الديمقراطية هي حماية هذا الفرد والإكثار من أمثاله . لأنه الفرد الوحيد الذى يضيف شيئاً إلى المجتمع بوجوده. الفرد الوحيد الذى يتكلم ويكتب ويعمل ويحتج ويتدخل فى الآلة الكبيرة بالإصلاح والتشجيع بين حين وآخر .
والتربية الخلقية وحدها هي التى تصنع هذا الفرد . أنه نتيجة الفهم الواضح لمعنى الواجب ومعنى الفضيلة . . ومعنى الرذيلة . .

هل لي أن أحلم في نهاية البحث بشئ .
 إنى أحلم بنشوء أخلاق جديدة .. أخلاق عالمية .
 لا .. لست أحلم . بل أرى هذه الأخلاق في طريقها
 إلى التحقيق . . .
 لقد بدأت القصة بظهور أخلاق فردية اتخذت قاعدتها
 من مصلحة الفرد . . ثم نشأت شركة إقتصادية جديدة
 أسمها الأسرة إحتاجت إلى تركيب أخلاق جديد هو
 الأخلاق الأسرية .
 ثم نشأت الدولة . . وهى مؤسسة إقتصادية كبيرة تضم
 منافع الأفراد جميعهم . وضحت الأسرة بمنافعها الخاصة
 فى سبيل الخيرات الكثيرة التى كسبتها من هذه الشركة
 الاقتصادية الواسعة .
 إن الأسرة لا تستطيع أن تملك وإبوراً للإتارة ولا شركة
 لتكرير المياه ولا مضارب أرز ولا مصانع سكر . . هذا

عدا منافع أخرى عديدة . مثل تنظيم الرى والصرف
 وحراسة الأمن والإشراف على الصحة والتعليم . . كل هذه
 مكاسب تستطيع أن تحصل عليها الأسرة حينما تنضم إلى
 مجتمع فى مقابل ضرائب وتضحيات وتعديلات قليلة فى
 لوائها الخلقية .
 ولهذا نشأت الدولة . . لأنها أصبحت ضرورة . .

وقد مر الزمن والدول تتصارع . . ثم نشأت الحاجة إلى
 وحدة عليا تضم كل الدول ، وولدت عصبة الأمم . . وهيئة
 الأمم المتحدة ومجلس الأمن . .
 لكن الضرورة الموجودة فى الاتفاق أقوى من هذه
 الاتحادات الواهية . .
 إن الوحدة العالمية تستطيع أن تحقق أرباحاً هائلة
 لا تقوى الدول فرادى على تحقيقها . .

ورؤوس الاموال التي كانت تثير الحروب فيما مضى .
قد بلغت من اعتماد بعضها على البعض ومن تكاثرها . . انها
أصبحت تنفر من الحرب وأى حرب ؟ . . ان العلم يقول
انها حرب إبادة يفنى فيها العامل وصاحب المصنع والسمسار
والممول ورأس المال . . ولا يبقى شيء . .

إن صاحب رأس المال الذي ينظر بعين أنانية يرفض
الحرب العالمية . .

وحين يشتد الصراع وتصل الازمة إلى قممها ويصبح
مخيراً بين الفناء وبين تدويل مصلحته سوف يدور مصلحته .
إن منطق مصلحته نفسها يقول هذا . .

وحينما تصبح كل مصلحة حتى مصلحة الاقليات في
إنشاء الوحدة العالمية وفي تدويل المجتمعات فقد أصبح
الوضع يدعو إلى تفاؤل عريض .

إن المصالح الاقتصادية والمنافع البشرية هي جذر كل
تطور خلقى . .

والاخلاق انعالمية في طريقها إلى الميلاد لسبب بسيط
إن الاقتصاد العالمى ولد فعلاً . . وأصبحت الدول معتمدة
على بعضها البعض في القمة وفي الامان . .

وحينما يكمل الجنين الناشئ اشهره التسعة سوف يصبح
التعريف البسيط للفضيلة ليس هي مصلحة الدولة ولا
مصلحة الاسرة . . بل ستكون الفضيلة هي نفع الكل .

وسيكون شعار انجيل القرن الواحد وعشرين ابحاث
لنفسك عن المنافع من الطريق التي تؤدي إلى نفع الناس
معك . . تكن رجلاً فاضلاً وتكن سعيداً في نفس
الوقت . .

وحينئذ سوف يموت أبليلس بالسكته القلبية وسوف يموت
الصوت القبيح الذى ينطلق فى داخلنا ليحرم الأشياء
لمجرد أنها محرمات . . ويحلل الأشياء لمجرد أنها حلال . .

وينخضع كل شيء لحكم العلم المحايد حتى العن المحرمات
جميعا .. حتى الأشياء الملوثة مثل العملية الجنسية ..
سوف يشملها البحث العلمى ليستخرج منها أكبر قدر من
الفائدة واللذة .. ومن يدرى ..

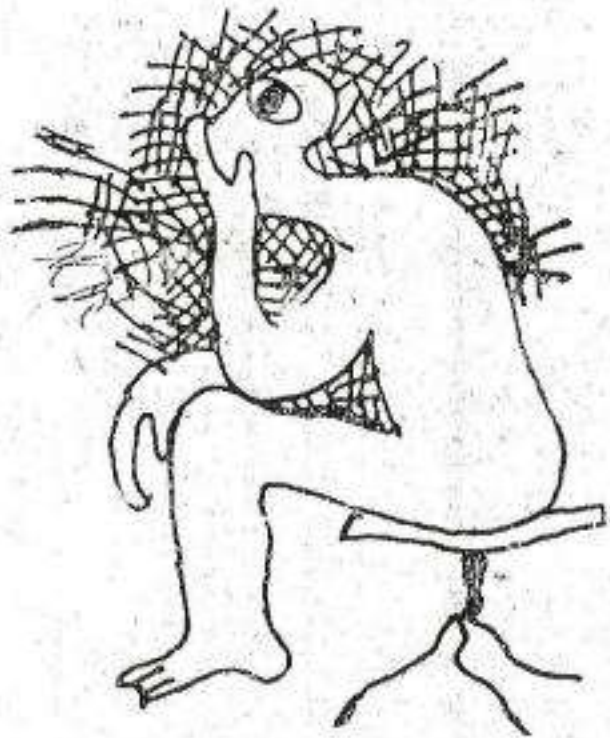
قد يجلس أحفاد أحفادنا بعد مائة عام ليشاهدوا فيلما
فى السينما الثقافية عن العملية الجنسية وطرقها .. كما نشاهد
نحن فيلما عن آداب المائدة .. وكيف يكون أكل اللحم
بالشوكة والسكين ..

ومن يدرى ..

لو علمنا .. ما سوف يفعله هؤلاء الأحفاد وحكمنا
عليهم بضميرنا المحدود .. قد ننكر أبوتهم ..

ولكن النظرة الواسعة تفتح لنا أفقا أخرى للحكم ..
فالأخلاق تتطور دائما إلى أحسن .. وأحسن ..
والمستقبل خطوات لا نهائية إلى الأمام ..

حنا لفلو



كرباج على العقل

أن الحرية لا يصنعها مرسوم يصدره برلمان ..
أنها تصنع في داخلنا .

أنها في الطريقة التي تفكر بها . . والأسلوب الذي
نشعر به . . والطريقة التي يفتح بها قلبنا على إحساس جديد .
ويصحو عقلنا على فكرة مبتدعة . . أن أخطر ما يهدد
حريتنا ليس السجن . . ولكن مشنقة في داخلنا . . اسمها
القلق . .

أنك تحب . . وتقضى الليل تفكر في المرأة التي تحبها . .
وتصارع رغبة تكاد تقفز من فمك . . وتقاوم لهفة تلهب
قدميك لتجري . . وتجري خلفها . . ولكنك لا تفعل . .
لأن هناك رياحاً أخرى تهب في نفسك في اتجاه آخر

مضاد .. هي نواهي الأخلاق وأوامر الوالدين . والخوف ..
والخجل .. . وعدم الثقة .. والميراث الشرقي العريض من
الحياء والتقاليد ..

وبين القوتين المتضادتين تقف معلقاً .. وقد شنقت
حريتك وتدلّت زرقاء لاهثة الأنفاس من حبل القلق ..
لقد حاولت أن تلقى برغبة صادقة إلى الخارج ..
فكانت النتيجة أن ألقى بها سجان في قفص تحت الأرض ..
في بدروم مظلم داخل نفسك ..

وهكذا كل شيء في حياتنا .. لا يجد طريقه إلى خارج
نفوسنا سهلاً ..

الخوف من الفشل يترصد كل رغبة ليخنقها قبل أن
تولد ..

وعقدة الذنب تجعل من كل عمل نعمله جريمة يؤاخذنا
عليها الله والمجتمع والقوانين والآباء والأجداد .

والكبرياء والكرامة وعزة النفس وكل ما يخف بذواتنا
يصطدم على الدوام بما يفعله الآخرون .. ويؤجج فبنا
الخوف .. ويدفعنا إلى الهروب والتفوق في نفوسنا خوفاً
من الهزيمة والمهانة والمذلة ..

والشك والتردد يمسك بالكلام في حلوقنا .. فلا ننطقه
وإنما نمضغه تحت اضراسنا .. دون أن نخرج له صوتاً .

والغيرة تضيق من آفاقنا وتحجب عنا مئات الفرص
ولا تكشف من دنيانا إلا وجه غريماً وهو يلوح لنا
بالكسب الرخيص الذي انتزعه منا .. فنقضى حياتنا في
مبارزة حقيرة على قطعة أرض أو امرأة ساقطة .. وتضيع
أعمارنا بما فيها من إمكانيات ..

وكل هذه القيود التي نرسف فيها من الداخل تعوقنا
وتقف في سبيلنا .. وتنتهي بنا إلى التوقف والشلل ..
وإلى حال تشبه الأمساك .. لا نمارس فيها عملاً ولا نستمتع

برغبة ، وتكون النتيجة أن نقف مكتوفين نتفرج على عمرنا
الذى يضيع .. وننظر بعداء إلى كل لحظة تمضي .. نريد
أن نقتلها ..

أن اللحظات تصبح عبئاً .. والحياة تصبح كابوساً ..
والقلب يصبح جثة يفوح منها الملل والسأم والضجر ..
والصيحة الوحيدة التى تبقى لنا هى الخلاص .. الخلاص
من نفوسنا ..

أن القلق حالة من التوتر تنتابنا حينما ننقسم فى داخلنا
ونشهد رغباتنا وهى تقتتل وتتصارع ..

أنها اللحظة الأليمة التى تتجلى فيها عدواتنا لأنفسنا ..
وهى عداوة مفزعة .. لأن لا شئ فيها يمكن لمسه بالأصبع
أو رؤيته رؤية العيان ..

والقلق اليوم ليس كلمة تكتب على الورق .. بل هى

صرخة على كل وجه .. وحالة يعبر عنها المجتمع كله بكل
مظاهره ..

فكر فى العادات البسيطة التى تشاهدها كل يوم ..
تدخين التبغ والسيجار والبيبة والجوزة .. وشرب
المكيفات .. ولعب الطاولة والدومنيو والكوتشينة
والشطرنج .. ومضغ اللبان .. وقزقة اللب .. ورواية
النكت القديمة المبتذلة ..

أن كل هذه العادات لها معنى واحد .. هو قتل الوقت
أنها لعبة الصبر .. التى يتلهى بها الإنسان القلق عن النظر
إلى داخل نفسه ..

إن طرقة القشاط والزهر .. وجنازة القتلى فى لعبة
الشطرنج .. وحلقات الدخان التى يرسلها المدخن .. ما هى
إلا جو مزيف .. وحياة مزيفة .. وانفعالات مزيفة ..
يريد أن يحتفى بها من انفعالاته الحقيقية ..



وأحياناً يتحول قتل الوقت إلى قتل حقيقي .. فتتطور
الكوتشينة إلى قمار والمكياجات إلى مخدرات .. والنكات
المبتذلة إلى عادة سرية ، وإسراف جنسى .

أنها القلق نفسه وقد ارتفع إلى مستوى عال من التوتر ..
ماذا يكتب نصف الأطباء للمرضى ؟

أنهم لا يكتبون أدوية .. ولكنهم يكتبون كرايبج
للفوس القلقة المرهقة .. فنصف الروشتات عبارة عن
كاسيوم وفيتامينات ومقويات ومنبهات للجنس .. وأقراص
لليقظة .. وأقراص للشهية... والكلمة التي يرددها الطبيب
بعد أن يفحص المريض ولا يجد عنده مرضاً .. هي ..
أنت مصاب بكسل في الكبد .. أو كسل في الأمعاء ..
أو هبوط عام ..

والأمزجة الجاهزة التي ترد من الخارج قد تحولت
الآن إلى أنواع مختلفة من المزة تعرض فيها الشركات فيها

في صناعة أخلاط من المذاق الشهى والعطور والألوان
حتى أصبحت رفوف الأجزخانات شبيهة برفوف البار ..
والادب هو الآخر أصبح صورة من التجربة
القلقة بكل مضاعفاتها .. فمعظم الكتاب يكتبون للتسلية
وليساعدوا القارئ على النسيان .. حتى على نسيان
الكلام الذي يكتبونه .. فكل هدفهم هو قتل الوقت
والصحف تطالعنا كل يوم بعناوين تصرخ بالدم والجنس
وريورتاجات من عشرات الأعمدة تروى قصص الانتحار
وتصف تفاصيل التمزيق الذي حدث في قبص النوم ..
وعلبة الاقراص التي تمنع الحمل التي وجدها المحقق تحت
وسادة الضحية .. الخ .. الخ ..
أما الاغانى فهي تذوب ذلاً وعذاباً وبكاء .. وتصرخ
بالرغبة وتستجدى الاثارة والتهيج .
بتبكي ياعين على الغايين .

علشان الشوق اللي في الورد بحب الورد
ياقلبي يا مجروح .
أنا والعذاب وهواك .
آه منك يا جارحني :
قسوه حبايبي مغلباني .
ظلموه .
عذبنى وأنا أجرى وراك .
أدور على اللي بايعنى .
أوف .. أوف . يامصبرنى على بلواى .
يا ظالمنى يا هاجرنى .
يا طول عذابى .
انها جرعة غير طبيعية من العذاب والتعاسة .

وفي أغان أخرى مثل .

من سحر عيونك ياه . . التي تنطقها صباح « من سحر عيونك ياح » . .

وفي منولوج مثل . . من فوق لتحت . . وتعالى يا الله يا الله تعالى يا الله : في غمضة عين . . تتحول الأغاني إلى كرايبج جنسية . .

أما السينما فهي تساهم في مأساة القلق . . بأفلام الرعب والفرع والجريمة . .

أفلام داركولا وفرنكشتين . . وحلقات الشيطان . . وأفلام القتل واللصوصية والقرصنة . . وإخراج هتشكوك الذي قلب كل شيء إلى فرع وحول قصص الحب العادية إلى قصص فرنكشتينية يقف لها شعر الرأس . .

واللقطات الطويلة للقبل التي تستغرق المدى الذي تستغرقه عملية جنسية بحركاتها ولهشاتها :

والمسرح هو الآخر تحول ثلاثة أرباعه إلى كباريه

يعرض لوحات عارية ونفوسا عارية ونكات بذئية . . والإذاعة راحت تهز أعصابنا كل ساعة بسلسلة القط الأسود . . والشبح . . و ليلة رهيبة . .

إن الفن يعكس الهستيريا الاجتماعية ويشعلها ويؤكد حالات القلق التي نعانها ويزيد عليها بحصار خارجي من الصور والمؤثرات والمهيجات تطيح بالبقية الباقية من النفوس السليمة . وتوقع بها هي الأخرى في مشانق القلق .

إن المحروم يزداد شعورا بالحرمان في إرتياد السينما والجائع يزداد جوعاً . . والشكاك يزداد شكاً . والمتردد يزداد تردداً . والسليم النفس يحس أنه غريب غير طبيعي . إن الفن يضع مزيداً من الأثقال على المتناقضات فزداد تناقضاً . ويزداد التوتر بينها حدة .

والنتيجة إننا تعساء . وأننا نفقد حريتنا . ونفقد اختيارنا ونضيع في الدوامة الداخلية في نفوسنا ، ونفقد الإتصال

بالدنيا . ونعيش في سجن حقيقي ونحن أحرار لم يصدر علينا حكم .

اذهب إلى مقهى واجلس وصفق طالبا كوبا من الشاي وراقب الوجوه حولك . ان ظاهرها ينيء بالهدوء والتراخي والنوم .. ولكنه نوم كاذب فلو كان نوما حقيقيا لنام أصحابه في منازلهم أم في البالكون أو على فوتيل مريح . ولكن هذه التجمعات من الأدميين يلوذ كل واحد منهم بالآخر ويتوكأ عليه ويبحث عن مكان تحت ابطه .. تدل على شيء ..

ولو لبثت قليلا في مكانك سوف يمر عليك بائع متجول يدس في يدك إعلانا .. يقرؤه بصوت خافت .. « حبوب الأزواج .. مركبة من العنبر الحر والماسستر

الخام وخلاصة الديوك وحليل التمساح وجملة أعشاب نباتية أخرى لا يمكن لأحد غيرنا الحصول عليها ..

« فائدة القرص الواحد تساوى مبلغ لا يقدر لأنه يغذى الدم ويمنع ارتخاء الأعصاب ويعطى الجسم قوة ونشاطا لم يسبق له مثيل ..

جرب هذه الحبوب وسوف تشعر بلذة لا مزيد عليها وسوف يختفي الرجل لحظه ثم يعود وفي يده إعلان آخر عن كتاب اسمه اللذة الملعونة .. ويهمس في أذنك

الثقافة الجنسية .. علاقة المرأة بالرجل .. خطيئة الحب الاستمتاع .. فتاة تفرط في شرفها .. إعتراف مستهتره كيف تخضع حببتك .. الفاتنات العاريات .. الاستسلام الممتع في العلاقات الزوجية .. لذة الرجل والمرأة .. الحيل الشيطانية مع المرأة .. الفتنة الطاغية .. الرغبة الجنسية .. العادة السرية

الفتاة اللعوب .. اعترافات مومس .. كيف تصبح ذئبا
وتجعل امرأتك دجاجة ..

كتاب يعلمك الطرق التي تخضع بها المرأة جسداً وروحاً؛
إن الرجل يوزع كرايبج على الخيول المرهقة حولك :
إن أعجب نتيجة للإثارة الجنسية ابتداء من الكتب
والأقراص والأفلام والأغاني .. إنها لا تقوى الرجل على
أداء مهمته الجنسية .. ولكن على العكس تؤدي إلى العجز
والارتخاء في سن مبكرة والسبب ليس المرض أو الضعف
ولكن القلق ..

إن الإثارة الدائمة تضع المسألة الجنسية في مركز الاهتمام
بالنسبة للرجل والمرأة .. وفرط الاهتمام يحول لحظة الجنس
للطفيفة إلى لحظة امتحان رهيب ترتجف أمامها أدهاب
الرجل . وتكون النتيجة هي الخوف والشلل والارتخاء ..
وهكذا تؤدي الكرايبج المنبهة إلى عكس نتائجها ..
وتزيد المشكلة حدة .

ما هي الجذور الحقيقية للقلق في مجتمعنا ؟
وما هي الميكانيكية التي يحدث بها القلق في داخل
نفوسنا ؟

وكيف نقضي عليه ونقتلعه من أساسه ؟
إن الرقابة على الفنون لا تجدى .. لأن الفنون تعكس
حقيقة واقعه .. فالمجتمع متوتر فعلاً .. ونفوسنا مشدودة
الحبال .. وحياتنا ذات أنغام عالية ..
إن المشكلة أعمق من وضع عسكري على باب كل
مؤلف ..

إن معنى هذا أن نهرب من خوف باستخدام
خوف آخر . معناها أن نرفع القلق إلى مستوى حكومي
بينما المشكلة باقية في الشارع وفي البيت .
لا مفر إذن من طرق البيت من باب .
لا مفر من مهاجمة الداء في وكره .

إن الصراع يجري في أعماق قلبنا وعلينا أن نفتح باب
قلبنا على مصراعيه ونفتش في أرجائه .. لنعرف كيف
نحب وكيف نكره .. وكيف نشور .. وكيف نتألم ..
وكيف نخاف .. وكيف نرقص على حبال هذه المشاعر
كلها ..

علينا أن نفك زنبرك دماغنا لنعرف كيف نملؤه
ونفك تروس عواطفنا لنعرف كيف تتلاءم وكيف
تركب بعضها على بعض ..

علينا أن نزل إلى غرفة الآلات لنعرف كيف تدور
هذه الماكينة التي أسماها النفس .. وكيف تعطب .. وكيف
يصيبها القلق وكيف يكون إصلاحها ..

مسرحة في سرداب مظلم

الأرض التي نعيش عليها واسعة والخير كثير والعمر
طويل .. ومع ذلك فحياتنا سلسلة من المشا كل ..

ما السبب ؟

السبب أن كل هذا لا يعيننا ..

أن ما يعيننا فقط هو رغبتنا .. ورغبتنا مثل النافذة
الضيقة تطل دائماً على ما يملكه الناس .. وتتشوف
دائماً إلى أشياء ليست في حوزتنا .. ولا في إمكاننا ..

أن كل ما في أيدينا يفقد سحره .. ولا يسيل لعابنا
إلا على أشياء لا نملكها

أن رغبتنا هي التي تصنع المشكلة وتخلق تعارضا بين
ما نريده وبين ما هو موجود ..

أنها هي التي تحفر الخندق الواسع بين الحلم والحقيقة . . هي التي تلح على الواقع طالبة تغييره بواقع آخر في خيالنا . .

وهي لا تفهم . . ولا تناقش . . وإنما تلح وتلح . . ولا تتعب . . ولا تقبل التعقل . .

والعقل . . أمام نيران الرغبة التي تحرقه . لا يجد مفرأ من مواجهة الواقع وتدبر الوسائل لتغييره وتكييفه ليصبح مرغوباً . . وهو يحتاج لوقت . . والرغبة تصرخ وتريد كل شيء في الحال . . والواقع جامد ولا يطاوع التغيير بسرعة والإمكانات محدودة والحرية محدودة . . والزمان والمكان والظروف والبيئة والناس قيود . . تضيف إلى كاهلنا أثقالاً وتجعلنا قليلي الحيلة أمام رغباتنا .

أنا نصطدم في كل لحظة بما نرغب وهذا هو سر الاشكال في الحياة .

وهذا الصدام هو نواة القلق . . لأن معناه أن هناك شيئاً ما ينقصنا . . وهذا الشيء غير موجود . . وقد لا نستطيع إيجاده . .

وهذا يضعنا أمام واحد من حلين . . أما أن نتنازل عن رغباتنا فنحرم من شيء نحبه . . وهذا نهاية مؤلمة وإما أن نتنازل عن واقعنا فننتحر أو نجن . . وهذه نهاية أكثر إيلاماً . .

ومن هنا ينبت الخوف والتوتر والتناقض . . والألم . . ومن هنا ينبع الاشكال . . ومن هنا تصبح حياتنا سلسلة من القضايا . . وسلسلة من المآزق . .

أن مبررات القلق موجودة إذن عند كل إنسان . . ومع ذلك لسنا كلنا قلقين . . ما السبب ؟

السبب أن عقولنا لها طريقة سحرية تعالج بها هذا
الصدام .. هذه الطريقة هي أن تتكيف وتتلاءم
وتتوفق بين رغباتنا وواقعنا .. وتقوم بالترضية وتهون
من الخسائر بإقناعنا بأنها ضرورية ولا بد منها . وبهذا
تتساقط المشاكل الواحدة بعد الأخرى ..

أن الرجل الفقير قد يحلم بالسكن في فيلا واقتناء
عربة والزواج من أميرة .. ولكنه مع هذا حينما
يصطدم بالواقع ويحسب الحسبة كلها في عقله لا يجد
غضاضة في التنازل عن هذه الطلبات ويكتفى بغرفة على
السطح وجلباب واحد لا غيره .

لقد تكيف على حسب دخله ..

ونحن حينما نرفع درجة حرارة بيوتنا في الشتاء بأن
نضع فيها مدفأة وحينما نخفض درجة حرارة جسمنا

في الصيف بأن نعرق .. تتكيف نحن أيضاً لنسجم
مع الواقع مثل هذا الرجل ..
ولكن التكيف أحياناً يتعطل ..

هناك لذات حادة عميقة وآلام مرهقة يقف أمامها
العقل مكتوف اليدين .. ويتعطل جهازه كله ..

الزوج الذي يحب زوجته ويعبدها ثم يفقدها في
لحظة بأن يأخذها الموت من بين ذراعيه .. يواجه
رغبة مستحيلة في بعثها ..

أنه يحبها ويريدها .. وهى في نفس الوقت ميتة ..
أنها ميتة في الحقيقة . حية في ذهنه وهو يحاول أن
يتكيف مع الوضع الجديد بأن ينساها ويبدأ علاقات
أخرى بنساء أخريات ويتزوج زواجا ثانياً . . ولكنه
عاجز عن تجاوز محنته ..

أن اللذات القديمة تلتصق به كأنها الغراء فيتوقف عند

وجه زوجته ويظل مسترخيا في أحضانها . .
 أنه يعيش في التجارب الجديدة ولكنه لا يمتزج بها . .
 أنه منفصل بوجدانه عن كل الأحداث التي تتلاحق
 حوله مثل نقطة الزيت تعوم في الماء ولا تتبل . .
 لقد تعطل جهاز التكيف في ذهنه فعجز عن قبول
 فكرة الموت . . ومضى يعيش في المستحيل كأنه ممكن . .
 لقد سقطت زوجته في براثن الموت وسقط هو في براثن
 القلق . . وكلاهما أصبح ميتا على طريقته . .
 والسر في تعطل جهاز التكيف هو تلك اللذة الحادة
 التي الصقت عواطفه بالماضي . . كأنها صمغ . . فافقدت
 عواطفه صفة الحرية والتجدد والتفاعل مع الحاضر . . فهو
 يتكلم ويتحرك في آلية وروحه غائبة تحوم حول شبح
 وهو يغذى هذا الشبح بتصوراته وانفعالاته فيكسوه
 باللحم ويبعث فيه النبض . . ولكن تصوراتها بها بلغت

من العنف لا تبعث الميت حيا . . أنها على العكس تزيد حبه
 وتزيد عجزه في نفس الوقت . . فيزداد توترا وتمزقا
 وتناقضا . . ويتحول قلقه إلى ألم عضوي وإلى سلسلة من
 الأعراض المرضية . . مثل هذا الرجل قد يذهب إلى الطبيب
 يشكو الصداع المزمن والقيء وخفقان القلب والهبوط العام
 والأرق وضعف الشهية . . فيكشف عليه الطبيب . . ويضع
 السماعة على قلبه وصدره . . ولا يجد شيئا . . فيقول له . .
 أنت موهوم . . وما تحس به لا أساس له من الصحة . .
 والطبيب مخطيء في حكمه . . والأطباء يخطئون دائما حينما
 ينكرون المرض لأنه غير مصحوب بعرض جسماني . .
 أن الجسم والنفس شيء واحد . .
 ونحن حينما نخاف ترتجف أجسادنا من الرأس إلى القدم
 وحينما نقلق ترتجف وظائفنا بنفس الطريقة . . ويرتجف هضمنا
 وتنفسنا ونبضنا وتفكيرنا . . ونقع ضحية أمراض غامضة
 لا تفسير لها في عالم الميكروبات . .

والدكتور جيلسبي يروي قصة مريضة جاءت به بالتهاب مزمن في ذراعها .. وكشف التحليل النفسي عن وجود صراع في عواطفها سببه كراهيتها لأمها ..

أن أمها تعاملها كخادمة وتستغلها إلى أحقر الحدود .. وهي تكرهها في عقلها الباطن وأن كانت ترفض هذه الفكرة في عقلها الواعي لأنها متدينة .

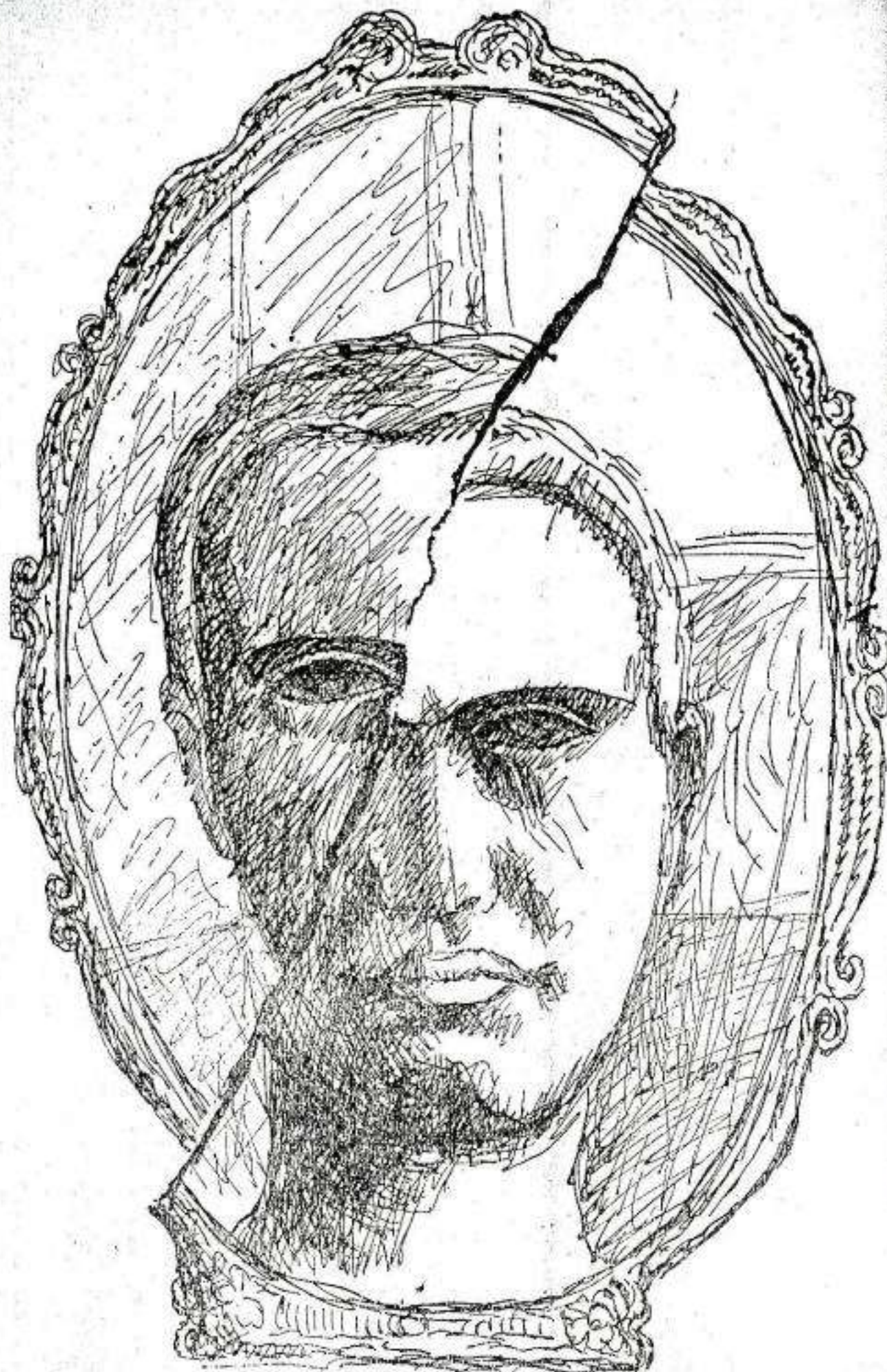
وتكون النتيجة أن تشعر شعورا غامضا بالذنب وتحاول أن توقع على نفسها العقاب .. فتهرش في ذراعها دون أن تدري حتى تجرحه .. فإذا التأم أخذت تهرشه من جديد ويؤدي تكرار الهرش إلى التهاب مزمن لا ينفع فيه دواء .. لأن الأكلان ليس أكلانا عضويا .. ولكنه أكلان نفسياني .. ومثل هذه المريضة لا تشفيها الاعمال الجراحية في عواطفها تخلصها من الكراهية .. وتحقق لها نوعا من التلاؤم والتكيف مع حياتها المنزلية ..

أن أخطر ما في القلق أنه مبارزة خفية غير منظورة يتبارز فيها خصوم لا نراهم في سرداب مظلم ..
أننا نسمع صاصلة السلاح .. ونشعر بوخزات السيوف في قلوبنا .. ولكننا لا نرى في وضوح العواطف التي تتبارز في داخلنا ..

وقد يكون سبب القلق هو حرماننا من الحب في فترة الطفولة .. حينما كنا نتسلق على صدور آبائنا فيلقون بنا بعيدا في ضيق وملل ..

وقد يبدأ الصراع من تلك السن البعيدة فنقع في محنة عاطفية بين حبنا لأنفسنا وحبنا للتدليل والحنان .. وبين حبنا لآبائنا .. ويؤدي بنا الصراع إلى العزلة والشعور بالنقص ..

وقد نعيش بعد هذا وفي ذهننا فكرة واحدة متسلطة عليه .. هي الانتقام من المجتمع كله ..



أن القلق إحساس مؤلم . . والنفس تتحایل لتهرب
منه بأى وسيلة . .

والجريمة والجنون والإنتحار والإنهيار العصبى سبل
يائسة تلجأ لها نفوسنا لتتخلص من هذا الشد والجذب
والتمزيق والتسلخ الذى يجرى فى . داخلها . .

حينما تشاهد طفلاً يحطم لعبة ويفقد عينيها . . فهى
غالباً ليست لعبة فى نظره . . وهو لا يحطمها بهذا الغل لأنها
لعبة . . وإنما لأنها رمز لشخص فى ذهنه . . ربما لآبيه
الذى ضربه وحرمه من حضن أمه . . وربما لأخيه الذى
تحبه العائلة وتفضله عليه . .

إن قتل اللعبة هو الحل الوسط الذى لجأت إليه
الإنفعالات المحبوسة لتعبر عن نفسها . .

ونحن مثل هذا الطفل نعانى مثات من الانفعالات
المحبوسة لا نستطيع أن نعلنها لأن الواقع لا يحتملها . .

وبعض هذه الانفعالات مجهولة بالنسبة لنا .. مدفونة تحت سطح الوعي .. لانحسر بها وإنما نشعر بصراعها فقط .. نحس بحرارتها ونرى دخانها ونشم شياطينها وهي تكوى أعصابنا ، ولكننا لا نراها ولا ندركها .. وهذه أخطر أنواع الانفعالات .. لأنها مكروبات غير مرئية إنها كالأقدار تهبط علينا من داخلنا فلا نستطيع ردها وإنما كل ما نستطيعه هو أن نعاني ونتعذب ونتألم فقط ..

إن سر القلق هو الإحساس بالاستحالة .. قد تكون الاستحالة سببها الخوف أو عدم الثقة أو عدم الفهم أو مركب النقص .. وقد يكون المستحيل ممكناً في الحقيقة ..

.. ولكن هذا لا يهم .. فالمهم كيف ينظر الإنسان القلق لمشكلته من داخل ظروفه وإمكانياته . إنه يحس بالرغبة ويدرك استحالتها .. وهو مع هذا

لا يستطيع أن يسلم بالهزيمة .. ولا يستطيع في نفس الوقت أن يفوز برغبته ويحققها .. إن كل ما يستطيعه هو أن يعيش في حالة شد وجذب ..

أنها حالة تشبه مسار البرشام تدق صاحبها في الحائط وتقيد حريته وتعطل ذهنه وتشل طاقاته وتربطه بلحظة حادة ربما كانت لحظة ألم أو لحظة لذة أو لحظة حب أو لحظة كراهية .

وهو لا يستطيع الفكك منها .. فإذا تجاوزها تجاوزها بجسده فقط .

فهو يذهب في رحلة بالقطار من القاهرة إلى الشلال .. ويشاهد مئات القرى والبلاد ويعيش في بانوراما متجددة .. ولكن فكره يظل مع هذا واقفاً على محطة واحدة لا يرحلها .. هي مشكلته .

لقد فقد القدرة على التعامل بقلبه .. وأصبح يتعامل

مع الناس بلسانه .. وفقدت حياته جوهريتها .. وأصبحت
سطحية خاليه من الحرارة والاصالة ..

وهو على سبيل الهرب من هذا الشلل قد يخلق حالات
من الشعور لأصل لها .. قد يبكى على حب جديد لا يشعر
به .. وقد يضحك على نكتة لا يفهمها .. وقد يتورط
في زواج لا يرغبه .. وقد يلقي بنفسه في مغامرة لا هدف
لها البتة ..

وهو بهذه الوسيلة يزيد مشكلته تعقيدا لأنه يجعل
الكذبة كذبتين .. ويصنع للسجن الذى ترسف فيه
حرية سورا آخر .. ويضرب حوله نطاقا اضافيا من
من الأسلاك الشائكة .. ويمعن فى الابتعاد عن نفسه
الحقيقية .

• • •

كيف يكون الخلاص من هذا التيه اللعين الذى يفوق

ظلامه ظلام الباستيل كيف نحطم أسوار سجوننا ونخرج
إلى الهواء الطلق ..

كيف نتخلص من لذة أسرة لذوق من جديد لذة أسرته
ثانية بنفس العمق وبنفس الحرارة .

كيف نتخلص من الحب لفاشل لنعيش حبا ناجحا
ونتمتع به ملء قلوبنا .

كيف نهزم الخوف والتردد ونكسب المرونة التى
تكيف بها مع الظروف المتغيرة حولنا .

كيف ندرك العوامل المجهولة التى تقرر مصائرنا ..
ونكتشف عواطفنا من ينايها إلى مصبها .. ونقيم السد
العالى فى مجراها ونتحكم فى تيارها فلا يجرفنا .

وفى كلمة واحدة .. كيف نصبح سادة أنفسنا .

والمجتمع مسئول أحياناً والفرد مسئول في أحيان أخرى ..

أن المجتمع شركة واسعة وظيفتها إفساح الفرص
والإمكانيات للأفراد ..

وحسب النظام القائم تكون هذه الإمكانيات كثيرة
أو قليلة .. وتكون حرة أو محتكرة ..

إذا كان النظام يعطى الفرد الواحد حقاً في امتلاك
الأرض وأدوات الإنتاج بدون حدود .. ويبيح
الاسترقاق .. فإن معنى هذا أنه يقطع الطرق على نمو
كل برعم جديد .. معناه أن المواليد الجدد سوف
يفتحون أعينهم ليجدوا كل شيء مملوكاً لغيرهم .. الأرض
والمنشآت التي عليها .. أما هم فلا يملكون سوى
أذرعهم .. لا يملكون سوى حرية التعب ..
أن طريقهم مسدود .. وإمكانياتهم معدومة ..

نفرة في الجدار

الفقر والمرض والفشل والافلاس والجنون والموت
كل هذه العقبات هي مصادر القلق لأنها السدود التي
تقف بيننا وبين رغباتنا ..

أنها هي التي تجعل لحظاتنا مستحيلة ... أنها الجدران
العالية التي نصطدم بها ونرتد عنها وعلى رأسنا جراح يسيل
منها الدم ..

أنا نريد ولا نستطيع .. لأننا فقراء مرضى
فاشلون ..

نريد ولكننا نخاف لأن الموت يهددنا
نريد ولكننا نحجم لأننا لا نملك هذا الشيء أو ذاك

وفرصهم لا وجود لها .. والاشتباك بالأيدى والصراع
قضاء محتوم عليهم .. والقلق مولود في المهد ومكتوب
عليهم حتى اللحد ..

أن كل شيء أمامهم مرهق ومستحيل .. الخبز
والمعرفة والدواء والجنس .. حتى الحب مستحيل ..
لأن التعاون غير ممكن .. والتطور غير ممكن إلا عن
طريق اكتساح الآخرين ..

أن العدوان في مثل هذا النظام ضرورة وحينما يصبح
العدوان ضرورة .. والحب استحالة .. يكون القلق
هو الضريبة الأولى التي يدفعها الإنسان ليصل .. لأن
عليه أن يكذب وينافق ويمثل ويعيش في صورة غير
صورته الحقيقية ليبلغ مطالبه .. عليه أن يتناقض مع
نفسه .. وهذا هو القلق ..

وفي مجتمع متخلف رجعى يؤمن بالخرافات ويرسف

في التقاليد ويحجب المرأة في عباءة مغلقة ذات ثقبين ..
ويحجب الرجل في سجن من المحرمات والممنوعات .. يكون الحب
مشقة .. والزواج المبني على اختيار حر سراب لا يمكن
تحقيقه .. وتكون الأسر وحدات تخلقها الصدقة ..
وتكون العلاقة الزوجية شيء كالدعارة تمنح المرأة فيها
جسدها لرجل لا تحبه مقابل ثلاثة وجبات يومية ..
ومصروف يد بضعة جنيهات في الشهر ..

وفي كل هذه النماذج من المجتمعات يكون القلق
مولوداً طبيعياً له أسبابه الموضوعية في الخارج .. في
البيت والشارع والسوق .. لأن المجتمع في هذه الحالات
يمثل صعوبة .. يمثل مقاومة للنمو والتطور .. لا تسهلاً
للحياة .. وإفساحاً للقوى الوليدة لتورق وتزدهر ..
وفي هذه الحالات يكون العلاج واضحاً .. أن
يتطور المجتمع ويهدم كل السدود التي تقوم في قوانينه ..
فيقضى على الملكية المطلقة ويجعل لها حدوداً .. ويقضى
على احتكار أدوات الإنتاج .. ويمنع الاسترقاق

والاستعباد .. ويبيح حرية الرأي .. ويفسح الطريق
للرأة لتتعلم وتعمل إلى جانب الرجل .. ويحقق اختلاطاً
نافعاً بين الجنسين .. ويقسم حياً حقيقياً وزواجا
حقيقاً .. ويقضى على الخرافة والتقاليد البالية والجود ..
ويجعل كلمة .. لا .. ممكنة في كل وقت وكل ظرف ..
ويحمي الطفولة بتحقيق الرعاية الطبية وتوفير الدواء
والإشراف الصحي .. ويجعل الشفاء ممكناً .. والضمان
متوفراً للعجزة وأصحاب العاهات .. والعمل ممكن للأيدى
العاطلة .. والعلم حقاً مباحاً لكل إنسان ..

وهذه الخصائص كلها موجودة في المجتمع الاشتراكي ..
ومعنى هذا أن علينا أن نتطور نحو الاشتراكية .. ونبنى
مستقبلنا .. ونعد أنفسنا وعقولنا شيئاً .. وبالتدريج ..
لقبول الفكرة الاشتراكية ..

وتبقى بعد هذا .. القلعة الأخرى التي ينمو في داخلها
القلق .. وهى تساوى فى الأهمية قلعة المجتمع .. وتفوقها
هذه القلعة هى الفرد ..

أن مسببات القلق تأتى من الخارج كما تأتى من الداخل ..
والمسببات الداخلية أهم من المسببات الخارجية لأنها خفية غير
منظورة ..

إن الإنسان القلق يعانى رغبة لا يستطيع تحقيقها .. وهو
لا يملك التكيف مع واقعه ولا يملك فهم هذا الواقع ، ولا تبين
امكانياته : ولا يملك حتى فهم نفسه ..

أنه يريد .. ولكنه لا يفهم ماذا يريد بالضبط ..
وهو يغذى هذا النقص فى وعيه بالتصورات ..
فإذا كانت مشكلته هى امرأة يحبها .. فإنه يضع صورتها
فى إطار من الزخارف والخيالات .. وقد يرسم لها صورة

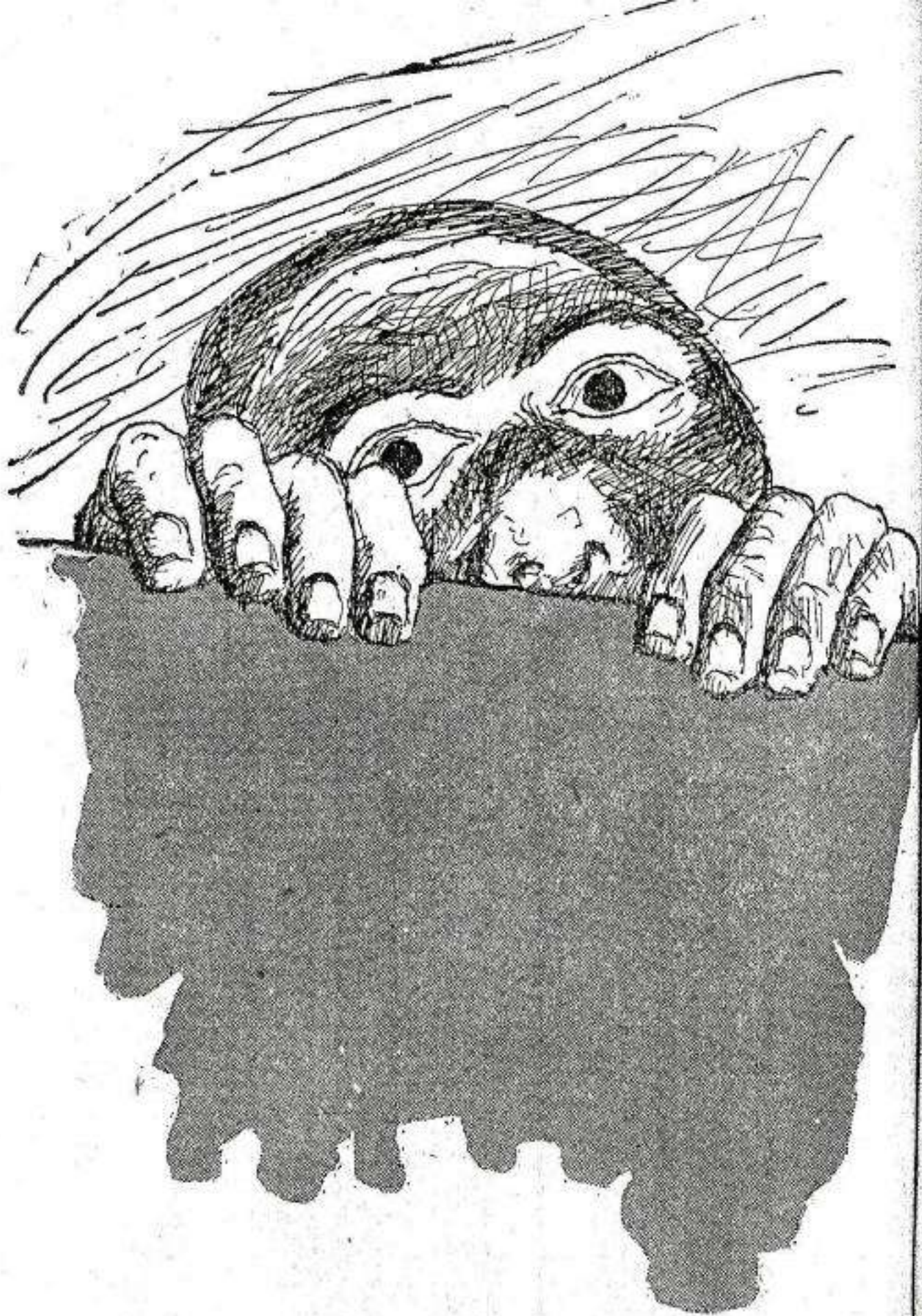
جديدة من أبداعه .. فيعطى لمحاسنها لونا باهرا ويخفى
عيوبها في مساحة من الظل ..

وهو يتذكر كل كلمة قالتها .. ويعطى لكل همسه
معنى لم تقصده .. ولم يدر بخلدتها بالمرّة ..

وتكون نتيجة هذه التطورات أن لذاته تكتسب أعماقا
غير حقيقية .. وتبلغ درجة من الكمال الوهمي تغريه
بالالتصاق بها .. فيتجمد عندها .. ويتحول بالتدريج إلى
الإنسان الذي وصفناه في المقال السابق .. الإنسان
المدقوق في الحائط بمسمار برشام .. مدقوق من قلبه ..
الإنسان الذي يتعامل مع الناس بلسانه وجسده فقط ..
ويعيش بسطح وجوده .. ويفقد جوهريته واصلاته .

ما معنى هذا ؟

أن معناه أن إرادة الإنسان القلق تساهم في خلق
مشكلته ..



أنه معذب .. ولكن جزء من عذابه إرادى .. هو الذى جلبه لنفسه بإرادته .. وبتصوراته ..

وهنا تبدو الشجرة الحقيقية فى جدار السجن ..

إن السجنين يشكو ولكن مفتاح السجن فى جيبه .. هو الذى أدخل نفسه وأغلق خلفه الباب .. فى إمكانه أن يتحرر ..

فى إمكانه أن يقطع حلقة التصورات المفرغة التى يدور فيها وأن يمحو الألوان والظلال من مشكلته ويتركها عارية على الخطوط .. وبهذا يذيب الغراء الذى ياصقها بوجدانه ..

ليس هذا فقط .. وإنما هو يستطيع أن يقفز من حين الفكر إلى حين الفعل .. ويقوم بخطوة إيجابية .. وينزل ميدان تجربة جديدة ..

أننا لا نتعلم السباحة طالما إننا واقفون على الشاطئ ..

نفكر فى برودة الماء وعمق البحر .. ونقدم رجلا ونؤخر أخرى. لن نتعلم إلا بقفزه واحدة تلقينا فى وسط الماء وسوف نحس ببرودة الماء تلسعنا ككرباج فى البداية .. ولكننا ما نلبث حتى نتعود ويتحول الشعور بالبرد إلى شعور بالدفء .. والشعور بالتهيب إلى شعور بالاقدام .. ونبدأ فى تحريك أطرافنا .. وهكذا نتعلم .. ثم نسيح .. ونقف .. ونمشى .. فى الماء كأنه أرض مرصوفة ..

إن الإنسان القلق فى حاجة إلى ثلاث مراحل ليفلت من قلقه ..

أن يفهم نفسه ويكتشف قدراته ويزيح النقاب عن رغبته الحقيقية ومداهها ومنبعها .. ويفهم واقعة وإمكانياته . أن يقطع جبل التصورات والخيالات التى تغذى قلقه .. وبهذا يخلع نفسه من الحائط ويضع حدا لجموده الداخلى. أن يلقي بنفسه فى شعور جديد وتجربة جديدة بدون تحفظ وبدون خوف .. لا يهتم .. أهى تجربة حلوة أم مرة جميلة أم كريهة .. لأن المهم هى لذة الاكتشاف ..

وبهذا يستعيد الإنسان القلق قدرته على التكيف ويشعر أنه قد استرد نفسه .. ووضع يده على عصا القيادة من جديد .. وأسوأ الحلول التي يلجأ إليها إنسان قلق هي الهروب .. إن المقاهي وأدمان التدخين وشرب الجوزة ولعب النرد ولعب القمار والمخدرات .. والعادة السرية .. كلها معناها .. ورقة غياب .. يتركها الإنسان القلق على مكتبه ويذهب بدون أن يصطحب نفسه إلى مكان ما ثم يعود دون أن يكون قد أحس بشيء حقيقى .. أن فترة الهرب فترة ساقطة في حساب العمر .. وأسوأ من هذا الحل .. حل آخر يعتمد على الإيمان بالشعوذة والأحجية والأدعية والابتهالات .. إن هذا الحل مثل البنج .. يصنع للإنسان اطمئناناً وهمياً فتزول المشكلة زوالاً مؤقتاً في الفترة المحدودة التي يعيشها تحت البنج .. فإذا تبخر البنج من الدماغ أو داعب المؤمن شك أو وسواس أو هاجس .. صحا فجأة على نكسة قلباً ينجو منها ..

إن الروحانيات والإيمان المطلق .. والتسليم بالقضاء والقدر .. لا يقدم حلاً ثابتاً باقياً لمشكلة القلق .. لأن الروحانيات نفسها ليست أرضاً صلبة تقف عليها الحلول .. أنها هواء .. لا جذور له في أرض الحقيقة سوى وجوده في ذهن المؤمن وتشبثه به .. فإذا اضطرب الإيمان .. فإن الانهيار يكون كاملاً لا شفاء منه ..

إن القلق مشكلة حقيقة .. تحتاج إلى حل حقيقى واقعى .. وهى مشكلة عاجلة لا تقبل التأجيل .. لأنها مثل محطة لاسلكية للأعداء في وقت الحرب .. لا تفتأ ترسل في ذهن إشارات مضللة مخربة .. وعلى هدى هذه البيانات المضللة يتصرف الإنسان القلق .. فيعالج أخطائه بأخطاء جديدة ..

وهكذا تظل المشكلة تتضخم .. والحمل يزداد ثقلًا والظهر ينوء .. وينوء حتى ينقضم فجأة .. وتنتهى حالة القلق بانهيار عصبى أو انتحار أو جريمة ..

خبر لا سر

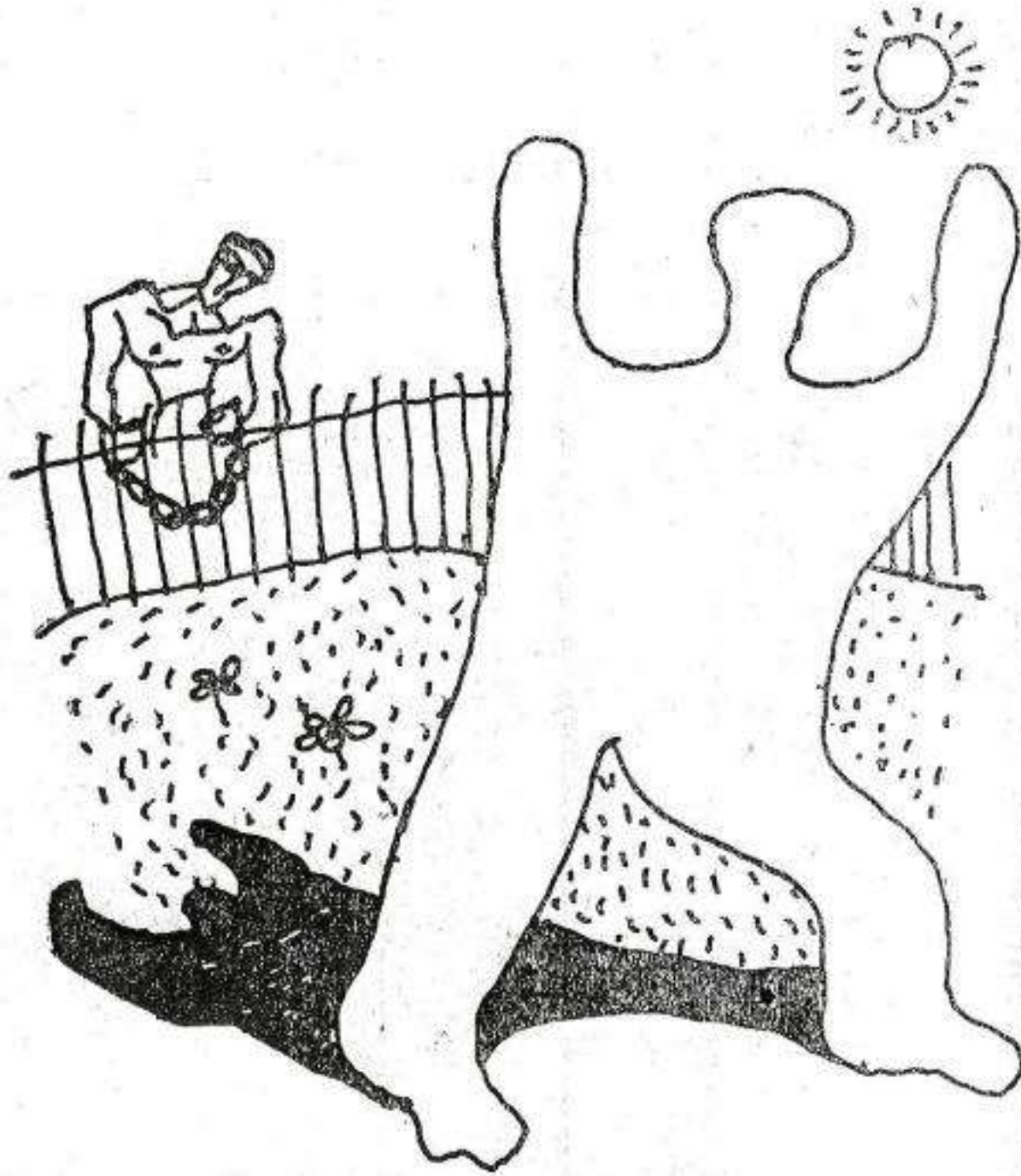
- ١٢٢ -

أن الخلاص بأى ثمن يصبح ضرورة ملحة فى بعض اللحظات .. الخلاص بأى ثمن حتى بالدم ..
وأمام لحظات الانتحار الحادة .. لا أحد يصبح مسئولاً عنا سوى أنفسنا ..

أنا نقف وجهاً لوجه أمام حقائقنا فأما أن نصل
لحل لتناقضنا أو يصل هذا التناقض إلى قمته فنحاول
المحافظة على حياتنا بأن نلغيها من أساسها ..

إن القرص الواقع من القلق هو ساعة نقضها
فى الفراش قبل أن ننام .. نفكر .. ونفكر فيما فعلناه
ونزله بميزان موضوعى هادئ ..

إن هذه الساعة هى بمثابة تطعيم ضرورى للذهن ضد
القلق لأنها سوف تمنحنا معرفة بأنفسنا ..
وإذا عرفنا أنفسنا تمكنا من قيادتها .. وتمكنا من
إصلاحها حينما تعطب .. وتجنبنا القلق مدى العمر ..



أنا حر

جلست على طرف فراشي أهر ساقى .. لا أعرف ماذا
أفعل بنفسي ..

كان على أن أكتب مقالا .. ولكنى كنت أشعر
بالملل .. والتمرد ..

ما معنى أن ألتزم كل أسبوع بمقال .. وما معنى أن
الترم يالكتابة من أصله ..

أنا حر ..

لن أكتب هذا الأسبوع .. ولن أشتغل بالأدب ..
سوف أشتغل بالموسيقى ..

وذهبت أبحث عن عودى .. وأخرجته من جرابه ..
وضبطت أوتاراه .. ثم بدأت أعزف .. حتى تسلطت
ورفعت جاعورتى بالغناء .. وبدأت أترنح حتى انقطع
نفسى ثم سكت .

وأخذت أتلفت حولى فى الصالة الخالية من الجماهير ..
وحانت منى التفاته إلى السماعة المدلاة من الدولاب ..
ونظرت إلى كتاب الأمراض الصدرية الذى اشتريته
بعشرة جنيهات من أسبوع ولم أفتحه .
وتذكرت لماذا لم أفتحه ..
لأنى قلت فى ذلك الوقت .. أنا حر ..

هل أنا حر حقاً ..
وأخذت أتمشى فى الصالة ..

هل أنا أتمشى الآن لأنى اخترت أن أتمشى أم أنها
أفعال يؤدى الواحد منها للآخر بدون اختيار
كان السؤال بسيطاً جداً
ولكنى قضيت سبعة أيام أفكر فيه وقرأت سبعة
كتب واستشرت سبعة فلاسفة لأجد جواباً شافياً

هل أنا حر ..
هل أنا أعيش على كفى .. أم على كيف مدير العمل
أم على كيف المقادير ..
إن الواقع الذى نعيش فيه بدايته مفقودة ونهايته
مفقودة .

اننا نسكن جزيرة معزولة فى بحر الظلمات . . هكذا
يقول لنا جان بول سارتر . . لقد جئنا من عالم مجهول ..
وسوف نذهب إلى عالم مجهول .

وما حياتنا سوى كوبرى معلق فى الظلام .
قنطرة نعبرها ونحن نتخبط دون بوصلة تهدينا إلى الطريق

لا معايير .. لا مقاييس .. لا مثل .. كل هذه الأشياء أتت عن طريقنا إلى الدنيا .

لقد صنعنا الساعات . كما صنعنا المثل .. ثم خضعنا للإثنين . وهذا هو المضحك . . فقد خضعنا لدخان خرج من دماغنا .

نسبنا انا أحرار . فكبلنا أنفسنا بأنفسنا ولكنا أحرار . وكل شيء فينا يصرخ بأنا أحرار . وحریتنا غير محدودة . أنا أبداع خيري وشری . وأبداع قانوني . واضع مشروع حياتي . والعقبات التي أظن أنها تقيد حريتي أنا الذي وضعتها في اللحظة التي اخترت فيها أهدافي .

أنا نسيج وحدي . لا يمكن أن أتحول إلى إنسان آخر . وكل ما أسمع .. يصدر عني ومني وإلى . . والواقع يفتح أمامي ويغلق خلفي كالباب الدائري . وفي النهاية أمضي وحدي حاملاً سري إلى قبري .

كل محاولة ابذلها لأتصل بالآخرين تبوء بالفشل . فنحن

لا يعرف بعضنا بعضاً إلا من الخارج . من الظاهر . أما باطننا . حقائقنا فهي لا تنكشف لبعضها أبداً . ولا وسيلة لمعرفتها .

حتى الحب يفشل في تعريف بعضنا البعض لأننا في الحقيقة نحب أنفسنا . . ونحب الآخرين لنمتلكهم . . ولنصل عن طريقهم إلى توكيد ذواتنا . .

وهو حب ينتهي على الدوام بالفشل لأنه لا سبيل إلى امتلاك الآخرين . . وإذا امتلكناهم فلا سبيل إلى امتلاك حرياتهم . .

وإذا أصر الآخرون على الحياة بمنجاة منا . . واحتفظ كل واحد بوجوده لنفسه فانهم يتحولون إلى سور مضروب حولنا . . ويصبحون جحيماً .

أنا مقضى على بالوحدة . . وبالعزلة . . وبالحرية . .

أنا حر سواء عقدت العزم على أن أكون جباناً . .

أم قررت أن أكون شجاعا ..
كل ما أفعله يعبر عني ...
أفعالي هي أنا ... حتى لو أنكرتها ...
الندم لن يعينني .. ولن يعنى ذراعى من أعمالها ...
أنا محكوم على بالحرية ...
محكوم على بأن أحب بلا أمل ... وأسير بدون هداية ...

هذا هو النشيد الحماسى الذى يقدمه سارتر فى تمجيد
الحرية ...

ولكنه يعود بعد كل هذا التهليل ... فيصاب
بنكسة ... ويهدم كل ما بناه ... فيقول ...
أنى أفقد حريتي فى اللحظة التى أختار فيها ... لأن
إختياري يلزمني ... يقيدنى ... يلتصق بى كالغراء ...



يصبح ثقلاً أجره خلقى ... وأظلم أجره ... وأجره ...
ولا خلاص ...

أما يسبرز فهو يهدم الحرية أكثر . وأكثر ...
كلما كان إختيارى عميقاً ... كلما خيل إلى أنى لا
أختار ... ولا أتصرف من تلقاء نفسى ... وإنما تسيرنى
قوة تملى على أفعالى ...

أما هيديجر فيصرخ قائلاً :

أن أملنا الوحيد فى النجاة ... أن نقول ... نعم ..
لأقدارنا .. وأن نواجه مصيرنا .. ونقبل واقعنا ..

إن الدنيا عبث فى عبث .. وكل ما يبدأ فيها ينتهى .. وكل
ما يولد يموت .. وبطولتنا إذا كانت لنا بطولة .. أن نقول ..
نعم سنعيش ونواجه مصيرنا بالرغم من كل هذه الآلام ...
وهذه هى الوجودية ..

فلسفة بلا أخلاق ..

فلسفة عزلة .. وفشل .. وقلق .. وموت .. وحرية تعيسة
لقد قالت لى الوجودية .. أنت حر .. حر بلا حدود ..
ولكنها علقت حرى .. وأعدمت وظيفتها .. وأوصدت
دونها الأبواب .. وعزلتنى عن الدنيا .. فلم يتبق لى إلا
الجنون .. أو الانتحار .. أو الاستسلام ..

وتركت كتب الوجودية .. وذهبت أتجول بين الفلاسفة
أسألهم المعونة ..
هل أنا حر ..

وظللت أدق على كل كتاب ..
وأجابنى كارل ماركس جواباً مريحاً .. قال :
إن الحرية لا معنى لها بدون فعل ..
الحرية الحقيقية هى الحرية التى تفعل ..

والحرية لا تستطيع أن تفعل بدون أدوات .

إني بدون الطائرة والقطار والباخرة والحصان لا أكون
حرّاً في السفر إلى فرنسا ... إنها تكون حرية عاجزة تشبه
نباح الكلاب ... هبهة بدون جدوى ...

وركوب البحر وركوب الهواء لا يكون ممكناً إلا إذا
عرفت قوانين الماء وقوانين الهواء ...

إن العلم هو الذي فتح لي الباب إلى هذه الحريات
باكتشاف قوانين الهواء والماء ... وباختراع السفن
والطائرات ...

إن العلم أضاف لي عدة سيقان وعدة أذرع فأصبحت
أكثر قوة وأكثر حرية ...

إنه جعل مستحيالات كثيرة ممكنة ...

إن الحرية الحقيقية صناعة يعكف البشر كلهم على عملها...
العالم والفنان والسياسي والزارع والعامل يصنعونها بعملية

غزو منظمة يكسبون بها إمكانيات جديدة ... وقوى
جديدة ...

أنت حر ولكن حريتك لا سبيل إليها إلا بالجهد الذي
تقدمه للغير وتلقاه من الغير ...

وأغلقت الكتاب ...

وبدأت أكتب . وقد أحسست بحرقى الضائقة تعود
إلى من بين السطور ...

أفقد ساعتى فى الزحام ... يقول الناس هذا هو النصيب ...
ثم يمصصون شفاههم ويحمدون الله لأن قضا أخف من
قضا .. فالذى فقد ساعته كان من الممكن أن يفقد حافظته ،
والذى فقد ذراعه كان من الممكن أن يفقد عنقه ... والذى
مات غرقا كان من الممكن أن يموت حرقا ... والذى مات
حرقا مات شهيدا صلوأ عليه .. فإذا قال أفندى متحذلق أن السائق
كان سكران فاقد الوعي ولو أنه تعقل ولم يسرف فى الشراب
لما مات ... لو جد ألف رجل يمسك بخناقه ويتهمة بالكفر
والزندقة — فكيف يمنع الحذر من المصير ... وكيف يغير
العقل من المكتوب .

إن النصيب كما هو فى ذهن الناس ليس مجرد لطشة من
الطشات المجهول بل هو إرادة ذات حكمة وعملية واعية فيها
رسم وتخطيط لا مفر منها أبدا مهما أبدع العقل فى وسائله .
هل هذا صحيح .. وهل ما يقول الناس صدق ؟ .

وهذا نصيبى

الفقر والجهل .. والمرض .. والقدر أربع لعنات تدور
فى حلقة مفرغة وتؤدى الواحدة منها إلى الأخرى ..
الفقر يؤدى إلى المرض والجهل .. والثلاثة يؤدون إلى
الإيمان بالنصيب والاستسلام كمهرب مؤقت من الأزمة
النصيب بالوعة ومصرف للقاذورات الشرقية جميعها ..
وهو اعتقاد لا يقوم على أسباب .. سوى هذا التعب المستمر
من الواقع واليأس من تغييره .

حينما يدخل السائق السكران فى شجرة . وحينما يموت
العجوز بالسكتة القلبية . وحينما يتصادم قطاران ويقتل ألف
راكب ، وحينما ينهار بيت فى السبتية على من فيه ، وحينما

إن الذين يقولون هذا لا يكلفون أنفسهم مشقة البرهان وإذا طالبتهم بالبرهان نظروا إليك نظرة رثاء وإشفاق فالنصيب عندهم واضح بالبداية مثل جدول الضرب والحروف الأبجدية... وهم يعتقدون فيه بلا عقل وبلا مناقشة، كما كان الفراعنة يعتقدون في عجل أييس... وليس أمامك إذا أردت اقناعهم سوى حل واحد... أن تذبح العجل أمامهم وتشرحه... وتقول لهم... هذا مصرانه... وهذا طحاله... إنه عجل مثل أى عجل فى الدنيا.

وسوف أحاول فى هذه السطور أن أفهم معنى النصيب أن أعرف أين كبده... وأين طحاله... وأين مرارته...

إذا كان المقصود بالنصيب أن هناك قوى فى الطبيعة خارجة عن إرادة الإنسان فالجواب . نعم . فهناك الزلازل

والصواعق والبراكين والعواصف وحركة الأرض والجاذبية والرياح والمطر . وكلها قوى خارجة عن إرادة الإنسان . وأكثر من هذا . فى المجتمع الإنسانى قوى تعمل فى الناس كما تعمل الزلازل والبراكين والصواعق . فى المجتمع عرف وتقاليد وأديان تؤثر فىنا كما تؤثر الرياح فى حشيش الأرض .

وفى المجتمع ظروف اقتصادية تحد من حرية صاحب المليم . وصاحب المليون... تصادم المصالح بين الطبقات وصراع المنتج والمستهلك . وتراكم السلع ، وحركة السوق ، كل هذه قوى مثل القوى الطبيعية .

وصاحب المليون بالرغم من قوته وغناه يفقد السيطرة على مليونه حينما يبيع ويشترى بها فى البورصة... لأن البورصة لها قوانين عامة مثل حركة الأرض تخضع للعرض والطلب وتصريحات إيزنهاور وإضرابات العمال وحرب كوريا .



وفي المجتمع ارتباطات تربط بينه وبين المجتمعات
الأخرى وتربط بينه وبين التاريخ . . وهذه الارتباطات
تؤثر فيه ولا يؤثر فيها . . لأنها فوق إرادة أفرادها . .

وأكثر من هذا في داخل الإنسان الواحد . . قوى
خارجة عن إرادته العاقلة . . قوى بهيمية تعصف به
كما تعصف الزوبعة بالشجرة النحيلة . . الأنانية . .
والخوف . . والجنس . . والموت . . والحياة . .

أن الإنسان كالشراع الهزيل في بحر خصم متلاطم
الموج من القوى العملاقة التي ترميه باليمين وبالشمال . .
وهو يصارع في بطولة حتى يموت فيسلم الشراع الهزيل
إلى أولاده . .

فهل هذه القوى المتلاطمة حولنا هي التي يقصدها
البسطاء والسذج ، حينما يتكلمون عن النصيب ؟ . . لا . .
أنهم يقصدون نوعاً آخر من القوى . . قوى لا قبل

للعقل بادراكها .. قوى غير قابلة للتعقل بالمرّة لأنها غير منطقية . . . علاقتنا بها علاقة حتمية مبرمة لا ينفع في تعديلها جهد ولا بصر ولا ذكاء . . . قوى لا تعمل في إطار القانون الطبيعي العام . ولكنها تعمل في إطار خطة خاصة تحببها حول الإنسان كالشبكة ثم تصطاده فإذا به كالذبابة معدوم الحياة .. قوى مكتوب عليها .. لا أمل .. لأن الصلة بينها وبين الإدراك والكشف .. مقطوعة .. ولأن علاقتها بالإنسان ليست علاقة سبب بنتيجة بحيث يمكن استنتاجها .
والنصيب بهذا المعنى مبرر لليأس والكسل والتواكل والاستسلام .. وهو لعنة حطت بالشرق إلى مستوى الشلل .. وهو مجرد بعس وخرافة مثل شمشورس وأبو رجل مسلوخة ولا يوجد دليل عقلى واحد على وجوده والذين يتخلصون من هذا المأزق بقولهم انه فوق العقل .. يوقعون أنفسهم في مأزق أشد .. لأن فوق العقل كله معناها الحرفى انه خرافى .

ما هو دور القوى الحقيقية الموجودة فعلاً . . . والتي تتلاطم حول شراع الإنسانية الضعيف الهزيل . . . ما صفاتها . . .

أنها قوى من نوع آخر . . . ترتبط ببعضها بالأسباب والنتائج . . . وتعمل في إطار القوانين الطبيعية العامة ويمكن للعقل أن يتحكم فيها .. ويضبطها في حدود إمكانياته ..

وإذا كان العقل يبدو حيالها عاجزاً . . . فما هو إلا عجز نسبي .. يتضاءل شيئاً فشيئاً أمام الجهد والذكاء .
فقد ظل الإنسان حائراً أمام قوة الريح .. ثم وضع في طريقها مروحة وأدار طاحونة ونفخ في شراع .. وما لبث أن اخترع طائرة وامتنطى صهوة الهواء كالجواد .
وما فعله في قوى الطبيعة فعله في قوى المجتمع .. فقد اكتشف القوانين التى تحرك مجتمعه واستطاع أن يغيره من مجتمع إقطاعى إلى مجتمع رأسمالى إلى مجتمع اشتراكى

انها قوى من نوع آخر تماما غير قوى النصيب
المزعومة .. فعلاقة الإنسان بها علاقة طوابعية وليست
علاقة عجز .. وهو يغالبها ويهزمها شيئا فشيئا .

أما ما يبدو في الحياة الفردية من حوادث تستعصى
على تفسير العقل ... وتتخذ صفة الخطة الغيبية المحبوكة فهي
من قبيل الاتفاق ... وكما يقولون ... أن القرد
إذا جلس أمام آلة كاتبة يحرك أصابعه إلى الأبد فلا بد أنه
سوف يكتب فى إحدى المرات قصيدة لشكسبير ...
لأن الاحتمالات التى توجد فى زمن لا ينتهى ... هى
إحتمالات لا حد لها ...

والتفكير العلمى الحديث يمشى خطوة أخرى إلى
الأمام فينكر حدوث الصدفة ... إنكارا تاما ... فكل
حادث له أسبابه ... ولا توجد حوادث شيطانية تذب
بدون علل ... وكل ما هناك أن بعض العلل تكون

مستترة ... وبعض القوانين التى تربط الحوادث
الطبيعية لم يكتشفها العقل بعد ... وهذا النقص فى المعرفة
هو الذى يعطى لهذه الحوادث مظهرها الغيبي المعجز ...

وإذا كان لهذا التسلسل المنطقى نتيجة فهي أن النصيب
بمعناه المألوف خرافة لا وجود لها ... وبين أيدينا دليل
دامغ هو إزدياد متوسط الأعمار بعد إكتشاف العقاقير
الحديثة وتقدم الطب الوقائى ... ووزارة الصحة تقدم
إحصاءات دقيقة تؤكد النقص المتزايد فى وفيات
الأطفال .

إن عمر الإنسان وقع فى يد العلم فعلا ... وها هو
يطول فى متوسطة جيلا بعد جيل .

ما السر إذن فى هذا الإيمان العميق بالنصيب ...
عندنا فى الشرق ... السر هو هذه اللعنات الأربع التى تؤدى

بعضها إلى البعض في حلقة مفرغة . . . الفقر الذى يؤدى إلى المرض والجهل . . . والثلاثة الذين يؤدو إلى الاستعمار الذى يبذر هذه اللعنتات وينميتها . . .

* * *

إن أجمل ما قيل فى النصيب . . . أنه يكمن فى داخل الإنسان كما يكمن الجنين فى البذرة .

إن البندقة صغيرة . . . لكن فى داخلها يكمن الجرس والساق والفروع والزهور التى ستتمو فى المستقبل . . . ونحن مثل البندق نحتضن أقدارنا فى داخلنا ومن تفاعل إرادتنا بالظروف تنمو فروعنا وأزهارنا .

وهكذا نشترك فى صناعة كل حادثة صغير وكبيرة وفى حياتنا .

الرجل الكذاب تسرع نحوه الأكاذيب والعاشق تنهافت عليه حوادث الحب . . .

والشرير تتسابق إليه الجرائم :

إن شفاهاً تتلاقى على حافة نهر الحياة . وكل منا يأخذ من النهر الجرعة التى تساوى سعة فمه وتلائم سعة أمعائه إن شخصياتنا تخلق الظروف التى تفصح فيها عن خصائصها وبهذا المعنى لا يكون النصيب شيئاً جاهزاً مرسوماً من قبل وإنما يكون كالثوب . نفضله على مقاسنا . ويكون لنا فى كل حادثة مشاركة ونصيب عادلاً وتكون مسئولياتنا كاملة وهذا اعتقاد يخرجنا من ملجأ العجزة الكبير الذى أدخلنا فيه ذلك البعبع الذى نسميه فى الشرق .. النصيب .

إني أجرى وراء المستقبل .. وأمنى النفس بالآمال ..
ففي المستقبل أبلغ آمالي .. وفيه أصلح نفسي .. وفيه أنيب
إلى ربي .. وفيه أكتب تلك المعاني التي طالما جاشت بها
نفسي .. ولكن المستقبل لا يأتي أبداً .. وحينما يأتي .. يصير
حاضراً وأبدأ في التفتيش على مستقبل آخر ..

حينما كنت في الابتدائية كنت أتمنى أن أصبح تلميذاً في
الثانوية . ارتدى البنطلون الطويل وأصفف شعري واحتفظ
بقطع الطباشير الميري لألقيها على أطفال مدرسة الروضة التي تجاور
مدرستنا كما كان يفعل معي طلبة المدرسة الثانوية المجاورة
ويوم وصلت إلى هذا الأمل هان على وذهب بهاؤه .
وانطفأت روعته وبدأت أنظر إلى مستقبل آخر وأصبحت
أتمنى أن أكون موظفاً في الحكومة مثل سيد أفندي
الذي يسكن عند خالي وأتأبط الجريدة اليومية وأناقش
في السياسة الدولية . وأجلس واضعاً رجلا على رجل
وألعب الطاولة . وقد كان . إذ ما كادت سنوات أربع تمر

عربي حقيقة

خطابات كثيرة تحاسبني حساباً عسيراً على ما كتبتة ..
عن الحرية ..

قليلون يوافقونني على أن الإنسان بخير . وكثيرون يؤكدون
أن الانسان مسير مكره مجبر مقضى عليه بمصير محتوم ..
لا مهرب له منه ..

ابراهيم ناجي شرف الدين يكتب خطاباً طويلاً يقول فيه :
يا أخى .. ستة آلاف يوماً عشتها ولا أدري لم أعيش ..؟
ولم إلى أين أسير ..؟

ثلاثة وعشرون عاماً عشتها وأنا أمثل رواية الأبدية ..
صحو ومنام .. شراب وطعام .. صمت وكلام .. وداد
وخصام .. والأيام تكرر .. والسنون تمر .. والعمر يمضي
دون أن أعرف من أنا ..؟ ولماذا أتيت ..؟ وإلى أين أسير ؟

حتى كنت موظفاً بالحكومة . وذقت تلك المرارة التي يشعر بها الموظف . والتي كان يخفيها سيد أفندي تحت جاكته وابتساماته المفتعلة . وهان على الأمر مرة أخرى . وذهب بهاؤه وتغير حاله بانتقاله من عالمى السانج إلى دنيا الوظيفة بما فيها من تملق ونفاق وكذب .

وجاء أول الشهر لأقبض أول مرتب ... سبعة جنيهات وكنت حينذاك فى أسير على بعد مئات الالاميل من بلدى وبدأت أشعر بضيق الحياة ... وتبددت آمالى ...

لم أتمكن من الجلوس على مقهى ... ولم أتمكن من تهيئة وقت للمذكرة .. وأصبح التحاقى بالجامعة استحالة ..

وضاقت حرياتى حتى كادت تنعدم . ولم يبق منها الا حرية الحصول على خبز اليوم أتبلغ به لأعيش يوماً آخر ..

أين الحرية التي تتشوق بها .. وتملاؤها بها صفحتين فى مقالك ..

هل أناحر .. وكيف ... وأنا لا أكاد أملك إلا الكفاف ولا أصلح إلا لمشوار واحد . من الديوان إلى البيت ، ومن البيت إلى الديوان .

كيف أتزوج ، وكيف أعيش ، وكيف أستمر فى تعليمى ، وكيف أحفظ صحتى ، كيف أوفر كل هذه الحريات وليست لدى امكانيات .

إنى لا أملك إلا حرية واحدة ، هى حرية قتل نفسى ، إذا كنت تظن أن هذه حرية .

ويكتب إلى سمير زكري سورىال بحقوق القاهرة قائلاً :
إذا كنا أحراراً فما معنى القانون . والأخلاق ..
والأديان .. والمدنية ..

إن كل هذه الاشياء قيود على حرياتنا ..
أن القانون يمنعنى من أشياء .. والأخلاق تحرم على

أشياء أخرى .. والاديان تخيفني من أشياء ثالثة ..
وتقيم على رأسى إلهاء يعز ويذل ويحيى ويميت ويخلق ويفنى
إله أنا إلى جواره ذبابة .. بل ذرة رمل . بل هباء ..
والمدينة تربطنى بعجلة الأسرة والبيت والمصنع
والآلة .. وتضبطنى كالساعة على مواعيد أنام فيها
وأصحو فيها ...

وإذا رفض رئيس التحرير نشر مقالك وقطع مرتبك ..
أين تكون حريتك ..

أن الحياة حولنا قيود فى قيود ..

ويتحدانى محمد عبد القادر قائلاً ..

أين هى حريتك ..

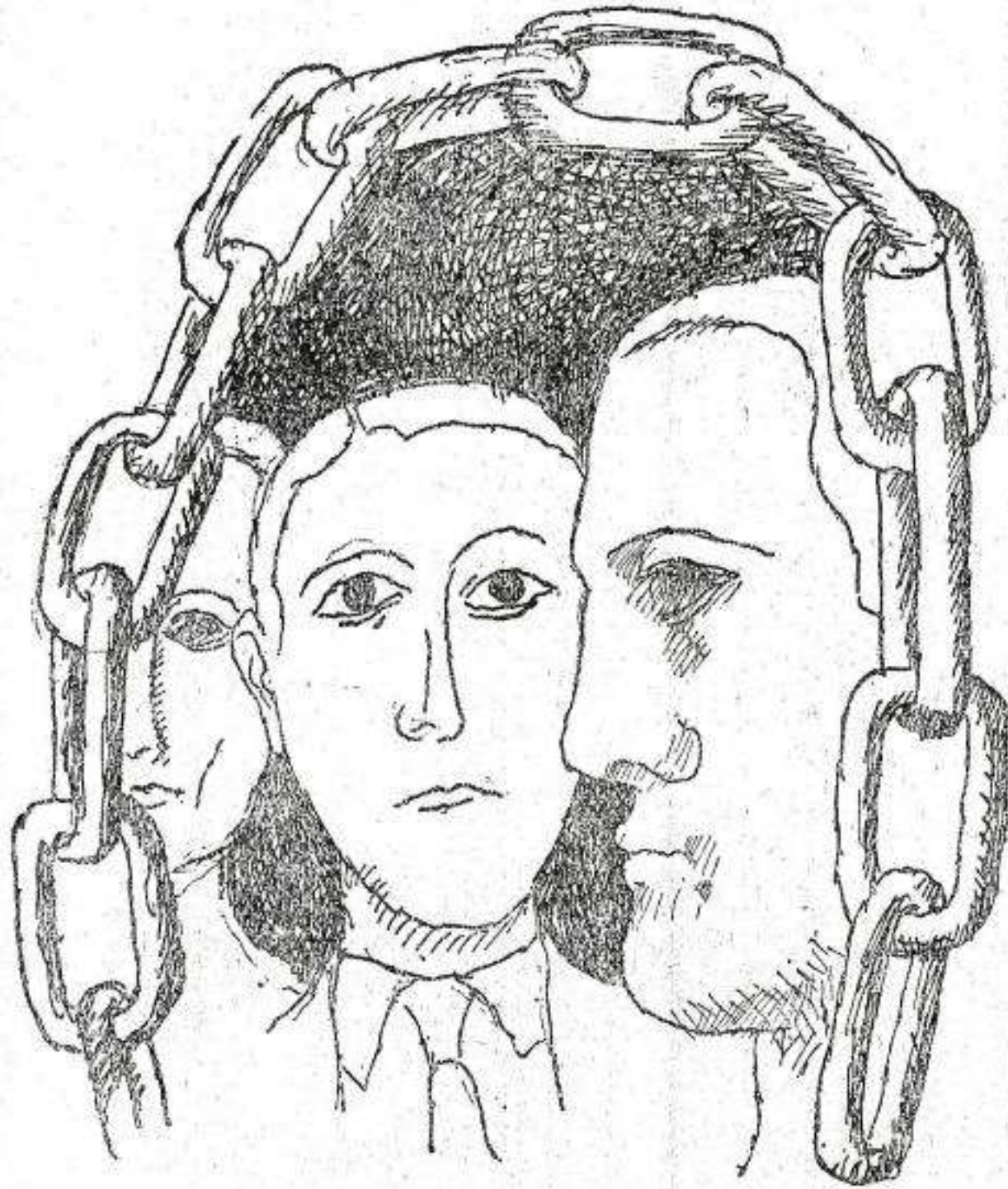
هل اخترت مولدك ..

هل اخترت أباك وأمك ودينك ووطنك ..

هل اخترت شكلك وطولك وعرضك .
هل اخترت النظام الإقتصادى الذى تعيش فيه ..
لقد استشهدت بكلام كارل ماركس لتدلل
على حريتك .. ولكن نظام كارل ماركس نفسه
يرسف فى القيود . فالاشتراكية معناها تجنيد الكل فى مصنع
واحد اسمه الدولة . وتأمين كل المرافق وكل الموارد وكل
طاقات الانتاج .. بما فى ذلك الأيدى والأرجل والعقول
فأين هى الحرية ..

ويكتب عبد الرؤوف . . ليسانس فلسفة ، بحثاً يقول
فيه .. أنى أكون حراً . . حينما أكون أنا الله . . أو حينما
أكون أنا العالم . . حيث لا يوجد شئ سوى . . أخضع
له . . واتقيد به . .

إن الحرية الكاملة تستلزم عدم وجود شئ غيرى . .



لأن أى شىء يحدنى .. الناس .. والطبيعة .. والظروف ..
كلها حدود .. ومثل هذه الحرية مستحيلة ..
وإذن فأنا لست حرا إلا بقدر ما عندى من وسائل
"مقيق هذه الحرية .."
ان حريتى مشلولة وناقصة ..

والقراء يحشدون كل أسلحتهم ضدى .. ويشحذون
أدمغتهم .. ويصرخون فى وجهى فى صوت واحد ..
وهذا وحده أول دليل على حريتهم .. فقد صنع كل واحد
منهم رأيا مستقلا ولم يتقيد بمقالى ولم يخضع لوجهة نظرى
وانتقل الى اعتراضاتهم فأقول أنها جميعا تدور حول
نقطة واحدة هى القيود المضروبة حولنا ..

وبنص هذه القيود تصل اليها بالوراثة مثل الاسم
والجنس والدين والوطن .. فنولد بها كما نولد بجسمنا

وبعضها يصل إلينا من مَن يبتئنا .. مثل الطبيعة التي
نعيش فيها .. حرها وبردها ورعدها وميكروباتها وأمراضها
وناسها ..

وبعضها من صنعنا وإبتكارنا .. مثل القوانين والأخلاق
والأديان والنظم السياسية ..

وجميعها في النهاية .. تقيدنا .. فلا يفتى لنا إلا
القليل .. أو ما دون القليل ..

وهذا ما يجعل القارئ عبد الرؤوف يقول :
إن الحرية مستحيلة ... وأنها إذا كانت ممكنة فليس لها
إلا طريق واحد ... أن يفنى كل شيء حولنا وينعدم ... وأن
أصبح وحيدا منفردا مثل الله بلا شريك .. وبلا آخرين معي
وبلا أشياء .. ذات صفة مجردة بدون مقاومات من أى
نوع ..

والقارئ ينسى أن الحرية تفقد كل معناها بمجرد

سقوط المقاومات حولها .. لأن انعدام المقاومات حولي ..
وامتلاكى لكل شيء في كل وقت معناه انتفاء كل نقص
عندى ومعناه كمالى لأنى أصبح الكل فى الكل .. وبالتالى
تندم مطالبى ورغباتى لأن المطالب والرغبات منبعها
إحتياجأتى ..

وبانعدام الرغبة يسقط معنى الحرية .. لأنها تكون
إستهدافا فارغا إلى لا شيء .. وتكون هى ذاتها لا شيء
إن مشكلة الحرية ترتبط دائما برغبة تتأجج فى الصدر
ومقاومة تقف فى سبيلها :

وتتأكد الحرية بانها هذه المقاومة وتراجعها أمام الإرادة
بهذه الصورة الجدلية تكشف الحرية عن مدلولها فى
الواقع .

أما الإنسان الأوحى المنفرد الذى تلاشت من أمامه

الظروف والمقاومات وإن عدم كل شيء حوله .. وأصبح هو الكل في الكل .. واشتمل على العالم في ذاته .. وتحول إلى اله .. ماذا يطلب هذا الكائن . وأى شيء يعترض مطلبه لتصبح حريته أو عدم حريته محل سؤال .

أين الصراع الذي تكشف الحرية مدلولها من خلاله .. إن مثل هذا الكائن لا يتحرك ولا يرغب ولا يأكل ولا يشرب ولا ينمو ولا يكبر ولا يموت ولا يولد .. أنه يعيش في سكون وأبد .. وعالم بلا زمان وبلا مكان .. وكلية الحرية بالنسبة له كلية خرافية .. حرية ماذا .

ماذا يطلب وهو المستغنى المكتفى بذاته .. ان الحرية كلمة بشرية صرفة .. كلمة لا معنى لها الا بوجود القيود .. بوجود المقاومات .. بوجود الظروف التي يصرخ منها القراء .. ويضجون ويشتكون .

ان نطاق الحتمية المضروب حولهم هو الذي يجعل لحياتهم معنى وليس هو الذي يهدمها كما يظنون .. لأن الحرية تعبر عن نفسها باختراق الظروف .. وزحزحة المقاومات .. وهدم العقبات

الحرية عملية مرتبطة باحتكاك الانسان ببيئته وظروفه ويلغيها أن يصبح الناس ألهة ... ان السؤال المهم هو .

هل تذوب المقاومات مع الزمن .. هل تقهر العقبات . عقبة خلف أخرى تحت ضغط الارادة .. واصرار الانسان .. أم أن كل حياتنا كالخارطة السد ..

والجواب .. نعم .. تتقهر العقبات .. ويتقدم العلم ويتحكم في الحر والبرد ، والرياح والماء والهواء . ويطور القوانين والانظمة إلى أحسن .. وأحسن .. وفي هذا دليل واقعي أكيد على حرية الانسان ... اضغط

على الزر الكهربائي في غرفتك فينتشر الضوء . . وينهزم
الظلام . .

ألا تحس أن هذا الكسب العلى البسيط أضاف إلى
حريتك . .

ومثل هذا الكسب الوف غيره تنتفع بها في كل لحظة . .
حينما تضع رجلك في ترام أو تدخل سينما . . أو تقرأ كتابا . .
أو تتحدث في تليفون . .

أن كل شيء يصرخ في عينيك بأن الحرية حقيقة والتاريخ
يلهث جريا إلى الأمام ليؤكد لك أنك حر . . والاقمار
الصناعية تهتف في الفضاء بأنه . . لا مستحيل . . ولا عقبة
في الأرض أو في السماء تقف أمام أرادة البشر . .
وما القدر إلا مجرد واسطة تكشف بها الحرية عن ذاتها
وتؤكد وجودها .

وأعود إلى حكاية التأمين في الدول الاشتراكية . . التي
يعترض عليها محمد عبد القادر ويقول أنها تقضى على الحرية

وأجيب بأن التأمين مثل أى نظام مبنى على دفع أقساط
شهرية . .

في التأمين يدفع كل فرد قسطا شهريا من حريته في سبيل
تأمين هذه الحرية طول الحياه . . وفي سبيل افساح امكانياتها
أضعافا مضاعفة . . وهذا هو الاساس البسيط لكل النظم
التعاونية . . ماركسية وغير ماركسية . .

أَقْوَالٌ غَيْرُ مَأْمُورَةٍ



● الإنسان مغرم دائماً بالتضحية .. كان في أرل حياته
يذبح نفسه قرباناً لله .. ثم بدأ يذبح خروفاً .. والآن هو
يذبح الآخرين .

ضابط متعاقد

● رضى الضمير مستحيل ... وفي اللحظات التي يخيل
إليك أن ضميرك رضى عنك .. لا يكون في الحقيقة قد رضى
وإنما يكون قد مات . : « معذب »

● أنا لا أحب لبس الساعات . لأنى أبدأ بأن أضبطها
على مواعيدى . وتنتهى هى بأن تضبطنى على مواعيدها .

فوضوى

● نحن أكثر وحشية من النمر .. فالنمر يقتل ليأكل أما
نحن فنقتل لنجعل من قرن الحيوان الذى نقتله رأساً لعصا .

« تاجر عصي ومنشات بطنطا » :

● الصدق هو الكذب الذى لم نكتشفه بعد .

« انسان متشائم »

● اذا جثم عليك كابوس الملل . . إبحث عن واحد
يمل معك . وأفضل أن تكون واحدة .

أخصائى فى التسلية .

إذا وجدتنى أ كذب لا تلمنى وإنما لم نفسك . ولم الآلاف
وخمسمائة مليون انسان الذين يعيشون فى العالم . . لأنكم
أنتم الذين جعلتم حياتى غير ممكنة بدون كذب .

« كذاب »

ماذا يريد السود منا . : لقد ادخلنا فى بيوتهم الماء والنور
وانجيل السيد المسيح . . وعلمناهم القراءة والكتابة . ثم
شنقناهم لنعلم غيرهم .

أليس هذا أمراً طبيعياً .

« استعمارى أبيض »

● الدبلوماسى هو الرجل الذى يحدثنى وهو يكرهنى

فأظن أنه يحبني .

● الذي يقول أن الشمس خلقت لتضيء الإنسان :
كن يقول إن الخيول خلقت لهاذيول لتصنع منها المنشآت :
مفكر

● الحب هو الجنون الوحيد المعقول في الدنيا .

عاشق

● الطريقة الوحيدة لتجعل امرأة صماء تسمعك . هي
أن تقول لها أتزوجك .

« طيب أنف وأذن . »

● سلة القمامة التي نلقى فيها بكل أفعالنا : هي كلمة
قسمة ونصيب :

« كناس في شارع الفلسفة »

● الرجل الذي يحب عشرة نساء . . حياته فارغة .
والرجل الذي يحب امرأة واحدة حياته مليئة .

« روميو »

● الخبث هو الحل الوحيد أمام الفتاة لتحفظ بسمعتها
وتتمتع بحريتها في نفس الوقت . وتواجه مجتمعا يسألها
كل يوم . أين كنت هذا المساء .

« أب ما كر »

● الزواج كالماء والحب كالليموناده قد تكون الليمونادة
طعمها أحسن ولكن الماء ضروري جداً للحياة .. لا تقوم لها
قائمة بدونه .

خبير في الحب والشئون الزوجية .

● الحبيب الغيور له ألف عين .. وهو مع ذلك أعمى .
« حبيبة مخلصة »

● إذا خلصت الحب مما فيه من أنانية وشهوة جنسية ورغبة
في حفظ النوع .. فإنه لن يبقى لك إلا .. الإنسانية ..
ما جستير في العلاقات العاطفية

● اسقى حبيبتك من كأسك .. حذار أن تسقها من نفسك .. إننا حينما نعطي نفوسنا للنساء نعجز عن استردادها ..
إننا نذوب فيهن كما يذوب السكر في الماء ويصبح من المستحيل فصلنا من جديد بدون اللجوء إلى النار والغليان والتبخير .
وحينما يذوب الرجل في المرأة يضعف ويصبح مثل ظلها .. والمرأة لا تحب الرجل الضعيف حتى لو كانت هي سبب ضعفه ..
« شاعر ضيعته امرأة »

● حينما أرغب في التطلع إلى وجهي أنظر إلى المرأة ..
وحينما أرغب في التطلع إلى نفسي أنظر في عين حبيبتي ..
« عاشق »

● المجرمون واللصوص يبتزون أموالاً ، ولكن قسوة الناس العاديين حولي .. قسوة أمي وأبي وأخوتي .. تبتز روحي .. تبتز أخلاقي .. فأتحول إلى إنسان خشن غليظ قاس .. ليت الأمر وقف عند ابتزاز المال .. لكان أهون ..
« إنسان رقيق »

● المرأة التي تحرص دائماً على الاحتفاظ بزواج وعشيق في وقت واحد .. لا تحب الاثنين في الحقيقة .. ولكنها تحب نفسها ..
رجل مضرب عن الزواج
ومضرب عن العشق

• وأشتغل بعد ذلك بآخر ساعة وأخبار اليوم والتحرير وروز اليوسف

• أخرج كتاب .. أكل عيش .. الله والإنسان .. قطعة السكر اعترفوا لي .. إبليس ...

• يعتقد أن مشكلة الجيل الحقيقية هي مشكلته مع نفسه، مع مثالياته وأهدافه ، فقد حطم مصايحه القديمة التي كان يسير على نورها ، ولم يصنع بعد مصاييح جديدة . . وهو يتخبط بين متناقضات عنيفة تمزقه ، ولهذا كان ، من واجب الكاتب في نظره هو تصفية هذه التركة القديمة من المثاليات والأهداف ، وخلق أهداف جديدة تنبض بروح العصر . . إن الإيمان ضروري ، ولكن بأي الأشياء نؤمن ؟ هذا هو السؤال الذي يجيب عليه الكاتب في كل مقالاته وقصصه .

• لا يلتزم في الكتابة إلا الصدق نحو الواقع الحى الذى يعيش فيه

• مازال أعزب حتى كتابة هذه السطور

المؤلف



مصطفى محمود

• تخرج من كلية الطب بالقصر العيني وتخصص في الأمراض الصدرية ثم تفرغ للكتابة

• بدأ يكتب القصص القصيرة من عام ١٩٤٧ في مجلة الرسالة

• لا يؤمن بالتقيد بالواقعية التشريحية للإنسان والموضوعات التي يرسمها ، لأن الواقعية في نظره ليست المطابقة الشكلية الفوتوغرافية وإنما هي مطابقة من نوع أعمق وأرقى ، مطابقة لحقيقة الموضوعات وجوهرها الداخلي ، أنه يهدف إلى رسم الإنسان من الداخل إلى رسم باطنه ونواياه ، ولهذا يعتمد أحياناً إلى الأخلاص بعلاقاته التشريحية في سبيل كشف هذا المضمون والتعبير عنه

البرسام



رجائي

- بدأ يرسم للصحف من عام ١٩٥٥
- اشتغل في دار الهلال وروز اليوسف
- عرضت لوحاته الزيتية في معرض الهيلتون في أكتوبر ١٩٥٩
- ولاقت نجاحاً كبيراً
- يحاول بخطوطه أن يكشف عما وراء الواقع ليرسم العواطف والأفكار والمعاني ويظهر الجزء الباطن المكنون من شخصية الإنسان

الفهرس

٣	مقدمة
١١	حقيقة الحب
٤١	إبليس
٨٠	محنة القلب
١٣٣	مخير لا مسير
١٧٣	أقوال غير مأثورة

هذا الكتاب خاص بصفحة

Dr. Mostafa Mahmoud